الكـــلام..

قصص قصيرة

المؤلف: د. حسن البنداري

العنوان: الكلام (قصص قصيرة)

الناشر: مكتبة بورصة الكتب للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف: للفنان عطية الزهيرى

لوحة الغلاف: للفنانة زينب السعودى

الطبعة الرابعة ٢٠١٣

بورصة الكتب

مكتبة

بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٢٥ شارع شريف- القاهرة

٠١٠٠١٨٨٩٢٦٣ - ٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ - ٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٨٧٦٤

الترقيم الدولي: 978-977-5016-42-3

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى صدرت عن دار الفكر العربى عام ١٩٨١م .

والطبعة الثانية صدرت عن مكتبة الآداب عام ١٩٩١م .

والطبعة الثالثة صدرت عن دار الإبداع عام ٢٠٠٨م .

د. حسن البنداري

الكـــلام..

(قصص قصيرة)

الطبعة الرابعة
٢٠١٣

الناشـــــر

بورصة الكتب

بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣- ٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ - ٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩

- ٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ - ٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩

البنداري، حسن.
الكلام: قصص / حسن البنداري. ط١ .- القاهرة: بورصة الكتب للنشر والتوزيع،٢٠١٣ .
١٩٥ص؛ ٢٠سم.
تدمك: ٣-٤٢-٥٠١٦-٩٧٧-٩٧٨
١-القصص العربية القصيرة.
أ-العنوان.

٨١٣,٠١

الرسم على الماء..

الرسم على الماء

(١)

.. الرابعة ..

الرابعة فى صالتنا التى لا تضم سوانا. يتناول وحده العشاء وأنا فى مقعدى مسترخية. عيناى عليه. الانتظار ممل. قتل وعذاب ولحظة شرسة موصولة من يوم كنت فى الرحم. لكن على النهار –هذه المرة– أن يمتنع عن الطلوع حتى أقول ويقول زوجى.. زوجى! الشعر فوق الرأس متقهقر لعدة

سنتيمترات.. زوجى.. بالسوالف شعرات فضية.. زوجى.. الوقار والجاذبية والبهاء.. زوجى نجم حاضر يسطع فوقهم.. فى المقدمة. البطل الوحيد خلف نجاح كل مسرحية..

يقول برقة:

- لا يبدو أنك نمت.

طنّت فى الفراغ صدى فى أذنى العبارة.. رقيقة دائما ومهذبة بغير أن يرفع عينيه من بقايا الطعام. همستُ:

- نمت.. قليلا.

الصمت: ويصفقون للممثل العبقري، معجبون به، ويثنون عليه فى صالات العرض، وأمام الأبواب، وفى التليفون اللعين لا يكف رنينه..

الحركة فى الصمت.. يدفع بالمقعد قليلا وبرشاقة إلى الوراء. ينهض. يمشى إلى الحمام فأسمع دقات قلبى.. دقات المسرح الثلاث.. الحائط، خرير الماء، فرشاة الأسنان. أسمع خطواته العائدة.. يقبل علىّ، يتوقف. يجلس ويزاحمنى ويلاصقنى.. يشعل سيجارة، أنزاح قليلا.. ينفث دخانها ويتابعه.. أتابع معه الدخان المندفع والمتصاعد. همستُ:

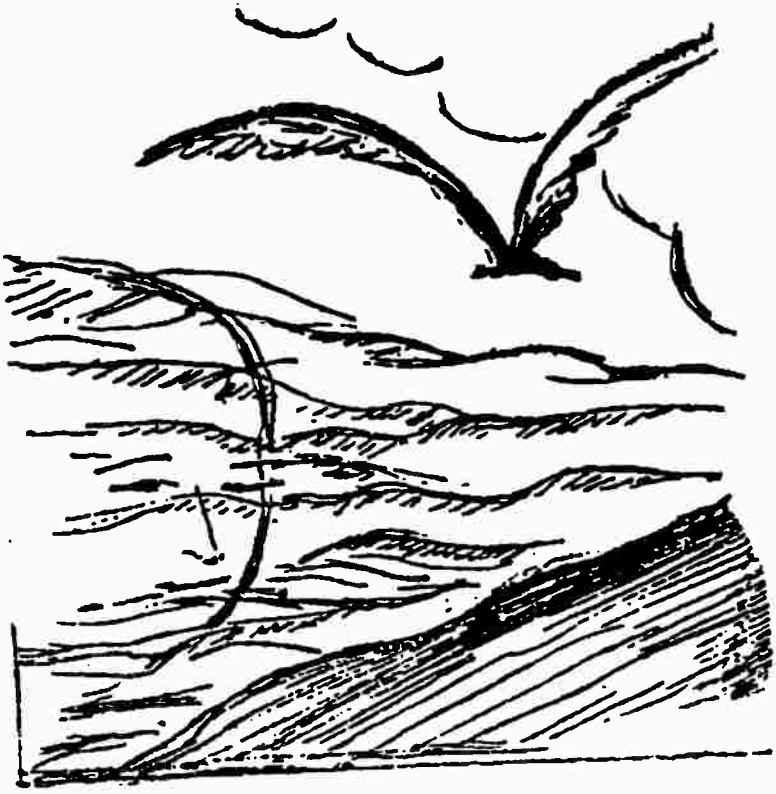

- إلى متى سيطول بنا الحال؟!

الصراحة لازمة ومطلوبة.. الحرية الممنوحة خداع وهراء وكذب. الطريق مختلف.. ليس يجمعنا واد واحد..

- وماذا أيضا؟

همستُ:

- الطلاق..

- فكرت جيدا؟

- فكرت.

رد بصوت متوتر:

- قولى لى. قولى.. من يكون؟

أرتجف فلا أجيب: خرس اللسان وقطع، ويصيبنى الخدر. يمنعني الخدر من الإجابة على سؤاله.. يملأ قلبي الآن فتى الشرفة المطلة على النهر، الذي يستفسر عنه، والذى بالقطع لم أقابله ولم ألمسه. رغم أننى رأيته فى شرفة النهر..

.. أسترخى.. ويتحرك فى القلب شوق أعمى ورئتاى تسحبان دخان سجائره. أواصل صمتي لكنني أسند -هكذا!- رأسى إلى كتفه، ليلفّنى، ولأحن إلى نوم هارب منذ الميلاد:

ويعاودنى التصفيق. أسمعهم يصفقون. فأرتفع مزهوّة بنجاحه. ويقاطعهم بأن النجاح كله راجع إليها.. إليها.. إليها..، مشـــيرا إلىّ، فيتوجهون نحوى، يبتسمون، يهزون الرؤس فأرتفع أرتفع أرتفع..أر..

- أحبك.. أحبك.. أحبك.

كلمات، وهو يأخذنى، يحملنى لنستلقى معا، يحتـــوينى وأحتويه في لحظات طويلة أو قصيرة.. لا أدري، لكنها تنسيني مؤقتًا مَن اقتحم تفكيرى فى وحدتي، ونال من زواجي:

"تسنجت ضحكاتهم وعلا الصراخ فخرجت.

خرجت إلى الشرفة المطلة على النهر: كانت الليلة قمرية، وكان القمر فى الماء، وكان شراع مدفوع بالهواء والموج.. قلت: لو يصيبنى الصمم والعمى والموت؛ جاؤونا ودائما يجيئون للسهر، للـــرقص والشراب والنظرات الجارحة.

كانوا يحتفلون بنجاح آخر أحرزه زوجـــى العبقرى.. وانطلقت الأجساد الداعية، رجالا ونساء تتماس وتتباعد وتتماس فى رقص بـــارع بطـــىء وسريع أفاح عرقهم المعطر..

انتهى إليّ فجأة صوت غازلنى: كنت وقتها أرتفق سور الشرفة ألاحق طائرا متحيرا. تلفت إلى مصدر الصوت فى ركن الشرفة: كان شابا نحيلا وجميلا لم أره من قبل شاركنا سهرة.. انتحى بى بسهولة؛ طائعة كنت.. معصوبة كنت.. نائمة ميتة كنت، وقال فى أذنىّ كلاما غريبا بينما كانوا بالداخل يجنّون..

غلبنى الخدر والنعاس والطائر البحرى يرفرف محازيا شريط النهر يتجه إلى الشمال.. وطلب أن أمنحه يدى فلم أتردد. لكن اكتشفت أن يدى امتدت إلى الفراغ.. ففتحت وبحثت ونهضت وهرعت نحوهم بالداخل أتفحصهم فلم أجد. لم أجد. جننت.. خرجت لم يهتم بى أحد. هبطت لم يهتم بى أحد.. عدوت للبحث عنه فتعثرت بحراس الليل الليل. أوقفتهم.. صحت فيهم طلبت المساعدة، وصحت. أعرضوا.. بلهاء لم يفهموا...".

(٢)

.. الرائحة المميزة فى ظلامنا المجروح بنار سجائرى. تستلقى متوسدة ذراعى الأيسر-النقط المنصهرة بين أصابع كفى اليمنى.. شاردة فى السقف، فى الرجاء المحلق فوقنا، تـدعونى وتحفزنى. تضعنى على طريق الكلمة الواحدة الحاسمة تفصلنا. تقوض البناء.. تزرو ريح الشاطئ أوراق الخريف المتربة. لكن كلما حاولت أن أقول الكلمة الفاعلة تنهى كل الكـلام - يهـرب منى النَفَس والدم إلى جب غير مرئية، أريد أن يستقيم البنـاء، وترتد ناصعة تلمع الأوراق الشاردة، لكن الحفز نام متواصـل. وشرود السقف ينطق بالتصميم والإثـارة. الطـلاق والطـلاق والطلاق ما تريده زوجتى.. ليكن الطلاق، وبعده يمكن أن تحلّ مكانها مَن تتخايل لعيني منذ فترة طويلة.. بيضاء برداء أسود.

- نحن نضيع الوقت.. و

أقاطع مسلّمنا:

- ولا جدوى من المحاولة.

تقول متسائلة تشدد الحصار:

- وإذن ...؟

- كل منا حر.

فتطرق الساعة بعنف طبول الزنج. خامسة الصبح. فأسحب نَفَسا أطول كى يبدد آخر أثر للرائحة المميزة. أزفر وأشهق وأزفر، وزفيرى أعلى من شهيقى.. تلمسنى: فندنو، ونهبط، ونعلو ونصعد ونمشى ونرجع، وأهرع إلى متاهات غامضة مبهمة –هربا من الكلمة الواحدة على طرف اللسان، تنهى كل الكلام .. تريدها زوجتى وأريدها. لكن ما ألبث أن أتذكر البيضاء صاحبة الرداء الأسود:

"انسابت دماء العروس رفيعة بطيئة.. فى عينى وأنا أعتلى خشبة المسرح أؤدى دور هاملت بملابس تاريخية.. كان قد مضى على ليلتنا الأولى يومان. كنت نشوان بالأنظار المبهورة مثبتة علىّ حين لمحتها.. الفصل الأخير.. صامتة يكسوها حزن أسرنى. كانت فى الصف الأول: الرداء أسود وهى بيضاء، تراجعت عروس اليومين. جفت الدماء الرفيعة البطيئة. كانت جالسة فى الصف الأول، جميلة.. جميلة.. وعروس اليومين جميلة.. جميلة..

توتّرت. توتر هاملت، إذ رأيتها تنهض وتولينى ظهرها. آه لو تبقى .. لو تبقى لدقائق: أوشك أن يسدل الستار الأخير فيفرغ البطل، وكانت عروس اليومين الجميلة تنتظر.. كانت تنتظر عودتى وهمّتى. لعنت، وخرجت عن النص أستوقفها.. لم تكترث لصياحى..

نزلت من فوق خشبة المسرح. تركت ممثلى المشهد الأخير دون أن أهتم بدهشتهم. لم يسدل الستار بعد!، ورنّ فى القاعة صوتى وصداه.. لم تمتد الأيدى كالعادة، ترجو توقيعى..الستار لم يسدل بعد !. الشفاه تنفرج عن الأسنان بالدهشة والذهول. ما زال الستار مفتوحا على حرج الممثلين وغضبهم.. وحين لمحتنى أقترب منها جرت، تباعدت عن النجم العبقرى. ولم أستطع ملاحقتها.. كنت ما زلت مكبلا بردائى التاريخى. وكان الناس حولى متكتلين مندهشين. فتصلبت -تمثالا- صوّانا- تحت ظلام الثالثة..."

(٣)

.. النهار يدخل من الشيش خلف الستائر ونحن نسبح فى العرق.. أنفاسنا ذات حركة واحدة .. أشعر بالبرودة: أجمع جسدى .. أجمع القطع المتناثرة. أنسحب. أنزل وأرتدى.. أجلس فى المقعد أمام الفراش لا أنظر ناحيته.. مازال يشير إلىّ يدعونى ويغويني. لكنى لا أجيب: قلبى لا يريد، ولا أصدق. آسف على اللحظة الماضية واللحظة الحاضرة واللحظة المقبلة.. أكره وأنفر وأغضب وأنشد التراجع والسقوط فى متاهة مجهولة.. هكذا أكون كلما وقع العناق والتلاشى. ألعن ألعن فى سرى. ألعن حين يقربنى إليه هذا الدبيب الخبيث. ألعن وأمقت دون جدوى: يقطع لسانى سارقا منى (لا) حازمة، عنيدة، لتبقى فى فمى "نعم" بالرغبة والجموح والجنون..

رأيت ألف ألف نهار ويأتينا -الآن- نهار جديد وأنا أحاول الكلام:

- لم أعد أحتمل. لم -أ-ع-د-أ-ح-ت-م-ل.. خلصنى.. خلصنى..

ومتى أفتح عينيّ أرى الصباح ناصعا وجميلا.

- كم أنت جميلة وأنت غاضبة يا عزيزتى.

ومتى أفتح عينيّ أرى النهر -بلا قمر- يغشيه الضباب والصمت والفزع.

- وعدتنى.. وعدتنى.. و..

ويطوقنى، ويقبلنى فأسكت.

أنظر -الآن- ناحيته.. أشهده، أنصت له يدعونى ويغوينى. أقف فيقف فأصدم بعريه. فيتمزق الرداء، ينزف الدم.. فتضرب ذراعاى فى الفضاء، فى الماء تطلب القمر والطائر والكلمات الجميلة الآسرة قادتنى إلى العالم السحرى. لكن لن يستجيب أحد: جدراننا صماء.. صلدة. جدراننا ملساء. فأدفن فى الصدر العارى وجهى، بينما يكلمنى فتى الشرفة فى القمر فى الماء يعلوه الطائر النهرى:

".. رن جرس التليفون فرفعت السماعة.

أتانى صوته وديعا آسرا.. استغرقنا الكلام.. كنت وحدى خارج حدود الزمان والمكان. أبديت رغبتى

الهائجة فى رؤيته.. وقلت لـن أنـدم لـو التقينـا وتعارفنا، قلت بغير خجل: امتلكنى فأنسانى الرادع والمحظور والأحكام المتوقعة على ألسنة المراقبين تجردنى وتدينني. وقال: أنا غير راض عما وصل إليه حالى، وقال: إن الحل بيدك، وسألته عن نهاية لعذابى فصمت.. صمت لأغفو أمـام التليفـون لا أرى سواى، وأصحو أستحث الرنين..

وفاتحت زوجى حين عاد بأننى لا أنـوى الخداع والغدر.. فابتسم وقال بلهجة مسرحية: أنت سيدة عظيمة وشجاعة. وقال: لك يا عزيزتى مطلق الحرية، ومن حقك أن تختارى، ولكن يا عزيزتى المسكينة: هل يمكن أن تخبرينـى؟ مـن يكـون؟ وأيـن؟.. ومتـى؟! و.. و.. لـدغتنى الأسـئلة المحاصرة.. اغتممت فلم أدر بماذا أجيب، فقبلنـى زوجى لم ينس وخـرج بوجـه هـادئ وجامـد فأغمضت فغفوت..

انتبهت بالجرس. عاد الرنين: طلب فى أذنى أن أهبط فورا إليه. فقلت أقترح: لو حضرتَ إلىّ؟. أمرنى أن أهبط فورا إليه على الشاطئ. تهللت. فتحت وغادرت قفزت قطة سعيدة. لم أنزل بالمصعد، نزلت على درجات سلم ست طوابق درجة درجة. كل درجة تسهم فى يقظتى حتى بلغت الباب..

لم يكن على كورنيش الشاطئ أمام عمارتنا أثر لإنسان. وكان الظلام شديدا.. قلقت.. وكانت الريح نشطة مرعبة تصفعنى بأوراق شجر جافة. ودق قلبى ودق. خنقنى البكاء وأنا ألقى على سواد ماء النهر بصرى. ثم شعرت بأنامل تنقر برقة ظهرى.. استدرت فوجدته ففرحت.

حين هممت بأن أرتمى فى حضنه تراجع بطيئا ثم بسرعة. كنت مشتاقة. غيبه الظلام. ثمة ألف يد شدته بعيدا عنى وأنا المشتاقة. جثوت

أنتحب. نهضت ونظرت إلى سواد الماء ولم يكن قمر.. وسمعت خطوات ثقيلة تقبل علىّ. كانت كثيرة وموحدة: كان الحرس الليلى. أقبلوا برغبة واحدة. دفعونى جميعا أسقطوني فوق طين وحصى وأعشاب الشاطئ.. نالوني جميعا. اغتالونى جميعا."

(٤)

.. القلب مكسور بكلمة واحدة لا يفصح عنها اللسان. لا مهرب من العدو لهثا معذبا وراء وهْم من صنعنا اللحاق به معجزة المعجزات، ويبقى أن نبوح خلاصا من ترقب مرسوم بالأعوام.. وحينئذ يمكنك أن تسترد راحتك الهاربة. وبقدر ما تتوقع من عواقب محتملة سوف تمحو النتيجة المنشودة الآثار المترتبة.. همستْ بيأس:

- لا فائدة.

عقبت بسرعة:

- أعرف.

دون غضب لأننى قادر ومقتدر.. قدرتُ أن يتسع الصدر بسعة العالم ليلجه الفعل والعجز، الصواب والخطأ،

النفور والوله دون انتظار لمواساة أحد. ولن يحاولوا الاقتراب لمعرفة ما يجول بالصدر، ومطلوب منك رغم الرفض أن تصدر الكلمة الواحدة بلا تردد.. واصلت الهمس:

- أريد أن أستريح.

- وأنا أيضا.

بالضيق والغضب والألم. ليكن. لكن لن تغلق الباب فى وجه أحد، وليتسع الصدر أكثر، ليست الراحة مقدرة لك، ولن ينصت للشكوى أحد. سألت محتجة:

- إلى متى تعذبنى؟!!

تساءلتُ مستنكراً

- إلى متى تعذبوننى؟!!

ويسقط سؤالانا فى اتجاه واحد. لا جواب لدينا.. أنظر فى عينيها الجامدتين تثيران كوامن الغضب. أغمض فيأتى الذين استوطنوا الصدر قهرا وقسرا، أفرح فهاهم قد جاءوا للمشاركة والعمل. أقرر أن أشكو فيختفى الأوغاد. أحزن فتقبل البيضاء الجميلة بأذنى فيل. أنطق فترتد هاربة بلا سبب. أفتح

فتطالعنى بالجمود والبرودة.. سياط تلهب الصدر بغير أن يواسي أحد!:

".. كنت فى بداية الفصل الأول لا أعى ما يحدث حولى.. تعثرت ونسيت وأنا المشهور بإتقان الحفظ، فاضطر الملقن إلى رفع صوته درجة أعلى غير مسموح بها سمعها المشاهدون: كانت قد جاءت البيضاء لتراني واعدة بأنه سوف يمكننا الليلة عمل كل شيء. كنت أتعجل.. وأقول كلاما خارجا عن النص..

شعرت بالفزع عندما نهضت تنساب طيفا بين الصفوف، فغادرت الخشبة. هبطت إلى الصالة أجرى. تعثرت وقمت وتعثرت بصدر زوجتى النائمة. بكيت وتكلمت محموما بكلمات لم تفهمها.. وقالت زوجتى: أنا لم أعد أطيق.. وقالت: كلانا سيُجَن. ثم راحت تهذى بكلمات لم أفهمها.. ثم تقاربنا وتعانقنا.. وحين همّ كل منا بالآخر زارنى وجه المرأة البيضاء حزينا منكسرا.. للحظة وولى.

هرولت بردائى المسرحى.. وسمعت زوجتى تضحك وتوجه كلاما إلى رجل غيرى لا أتبينه. واجتذبتنى خطوات المرأة تمعن فى الجرى هربا إلى ظلام لم يكن فيه سواى. على حين نادتنى أصوات آمرة غليظة استوقفتنى فلم أنصت.. الحرس الليلى. تكررت الأصوات تصنع الرعب والفزع فلم أنصت.. وصفق المشاهدون فى القاعة المكتظة فلم أنصت، وقالوا عبر الهواء الليلى: أنت فخر عصرنا فلم أنصت. لم أنصت. فسارعت تمتد نحوى أيدى الحراس والمشاهدين وسكان المدينة لا ترجو توقيعى.. انهالوا على "النجم" ضربا بالأيدى.. بالأقدام بغير رحمة .. لم أشأ الهرب.. حاصرونى.. تمكنوا.. دفعونى إلى الكورنيش.. إلى أعشاب الشاطئ .. مرّغونى.. تجشأت دما وقهرا تحت عيون نارية.. لكن لم أهتم بما يصنعون.. أقبلت المرأة غير كليمة تنسينى الشراسة والقهر بينما استمروا فى عملهم".

(٥)

.. طلع النهار..

يغلبنى النوم ..

فأتمدد إلى جواره بلا كلام..

(٦)

.. آه.. ها هو النهار قد تنفس .. بغير أن نقول الكلمة الواحدة، الحاسمة تنهى كل الكلام.. النوم: أستدير نحوها.. نامت. تغمض على الوجه البديعى عيناى..

يناير ١٩٧٢

الكلام..

الكـــلام..

(١)

..السيارة الأتوبيس تدنو من الميدان. بطيئـــة متثاقلـــة بسائق كسول لكنها تقرّب من موعد الاحتفال بالعائـــدين مـــن حرب انتهت منذ أربعة شهور، والنهار الأبـــيض يوشـــك أن تبزغ شمسه يقرّب من الموعد المنشود.

أحشو صامتا أذنيّ بكل الأصـــابع، وأغمـــض عينـــيّ لأحصى ضربات قلبى السريعة المبهمة: أقترب مـــن مكـــان

الاحتفال. مدرستى التى عدت إليها بعد انتهاء الحرب، المقدسة. لا أنوى الكلام. سوف اكتفى بالاستماع. لكن تـواردت علـى ذهنى تفاصيل "الكلمة الفاتحة المنتصرة" التى سيقولها فـارس الفرسان أنا فى الحفل المنشود، بمناسبة تكريمنا.. تكريم أبطال الحرب العائدين المنتصرين: داخلتنى أصوات زملائى الأبطال قالوا:

- الكلمة لك. لك. لك.

قالوا وصمموا بنفس واحد، و:

- اتفقنا على أن تكون أنت المتكلم..

قالوا بقرار حاسم لا يقبل ردا.

- زملائى الأربعة حاصرونى. طوقوا هروبى. إرادتـى. لم يستجيبوا لتراجعى واعتذارى. وقلت:
- اعفونى. يمكن أن يتكلم واحد منكم.
- اتفقنا على أن تكون أنت المتكلم باسمنا.
- لا أرغب فى الكلام.
- لا مفر.. هذا قرارنا جميعا.
- وليس لدى ما أقول.

- بل لديك الكثير.

قالوا وغادرونى .. الخطيب المفـوه!! أنـا الخطيـب البارع المفوّه؟.. صدى صوتى فى الوادى. والـوادى صـخر صلدى أملس لا ترتاده قدم، فضاع صدى صوتى. مـا فائـدة كلام الخطيب المفوه؟!.. جمعتهم وعاودت الاعتذار فلم يقبلوا. تشددوا. وهددوا بالغضب والخصام..

(٢)

.. أوقف السائق الكسول السيارة "بفرملـة"، بزلـزال مفاجئ. تنفتح عيناى.. تطير أيـد وأقـدام ورؤس. المحطـة. الوصول.. البداية والنهاية، ينهض جسمى.. يتحـرك مغـادرا المقعد. ينزل. تحتوينى -الآن- محطة الأتوبيس. يحتوى فارس الفرسان. تسرب الركاب فخلا الميدان. لا ناس، ولا شـمس. ولا جمهور يعرفنى.. أجر ساقى والنوم سلطان غالب يغازلنى. كيف أنام والكلمة لى؟!. ها. للفارس النكرة الكلمة الفاتحة.

الموعد.. أتذكره فأتوتر، فأسرع للحظة الخطو، لكـن سرعان ما أبطئ لأتوقف وأستأنف وحدى قاطع دورة الميدان

يعلوها جسر المشاة الجديد. أصعد السلم. أتفحص بعناية وجوه المدبرين والمقبلين.. لا أحد يعرفنى. لا أحد يعرف البطل!!:

"وقت الفجر جاءوا.. جاءوا وقت الفجـــر. بعد أن فرغت من إعداد "درس" جديد جاءوا .. أنا مدرس.. كانت زوجتى -عندما جـــاءوا- نائمـــة تحتضنها ابنتنا المريضة النائمة.. وكانت كل بيوت الحى نائمة. لكنهم جاءوا!. أنصتّ لرنين جـــرس الباب فى البداية كالحالم.. تحسّست فـــى الظـــلام ابنتى المريضة النائمة. تيقظت حواسى كلها علـــى تواصل الرنين!. العالم مهدد بالزوال!. هل العـــالم مهدد بالزوال وأنا المنقذ الوحيد؟!. وثبت خفيفا من الفراش، وقفزت من الحجرة إلى الباب إلى الصالة إلى باب الجرس. فتحت فسكت الجرس.. رأيـــتهم فى الظلام: المخبرون.. جاء أخيـــرا فـــى الفجـــر المخبرون.. دقوا بابنا. كلمونى وكلمتهم.. طلبوا أن أوقّع -هنا- على ضوء كشافهم الخافـــت. وقّعـــت على أمر استدعاء عاجل للانضمام إلـــى وحـــدتى

التى غادرتها منذ ثلاثة شهور بخطة تمويه ناجحة. هاهم يخرجون من الجيش. لا حرب. اطمئن الأعداء وتراخوا. ابتسمت وأنا أسمع صوت محرك سيارتهم المنتظرة. كانوا عجلين فوقّعت أمر الاستدعاء.. وقلت: الآن؟! فقالوا: الآن. بينما لايكف محركهم. كانوا عجلين. استأذنتهم فأذنوا وسمحوا شرط أن أسرع.. نفذت الشرط.. كانوا عجلين. خطفتنى يد وأودعتنى فى سيارة كبيرة مغبرة يقودها سائق متوتر تحت فجر بلا ضوء.. ثمة جنود غيرى جالسون تم استدعائهم. أسرعت السيارة أسرعت وأسرعت. مسافات طويلة قطعتها سيارة الفجر. طلع النهار وأشرقت الشمس. تسلقت جبلا اتجهت إلى قمته"..

(٣)

.. أنتبه على ساعة مواجهة.. "الجامعة العربية". جسر التحرير الدائرى بدأت تتكاثر فوقه أقدام المشاة. أنا وسط الجسر الآن. الفارس النكرة.. لا يعرفنى أحد. والأعلام

المرفرفة بهواء الصبح تتحدى: ".. كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء".. البناء الشاهق شاهد على.. على.. على. أين تفاصيل الكلمة؟ الحروف المتوارية؟ ليصول بها ويجول فارس الفرسان عنترة؟ انزلْ.. انزلْ.. انزلْ. ولا أفعل؛ أعتصم بالعمى، والصمم. والصمت:

"عارضتني صورة ابنتي المريضة وزوجتي المهمومة وأنا أحمل "شدة" الاستدعاء الأفارول والبيادة: كانت ابنتي وزوجتي ترقبان ما يجرى حين استدرت لاودعهما فى فزع.. كانتا ترقبان بذعر "شدة الاستدعاء".. انصتت زوجتي إلى صوت المحرك وهى تحمل ابنتنا المريضة شاهدت المصباح الكاشف.. فجريت احتضنهما وأقبل سنواتى الست أقبل منى المحمومة ابنتى.

.. تجاوزتُ نظرات الأم وربت الخد. قطعت فى لحظة واحدة مسافات هائلة.. لابد يا عزيزتى من الذهاب رغم أى شيء. الأمر الصارم.. لا تقلقى.. لا تحملى الهم. سأعود.

وحضرت فى الذهن مواقع الوحدة فـــى صـــحراء تعلو رمالها آثار بقع بنية ماتزال وشريط مياه القناة يفصل بين خطرين هما: هل يحدث؟ ولـــم يجـــب المخبرون!. لم يجب أحد!!. الجواب المستعصـــى ظل فى السيارة تأخذنى إلى مركز "التعبئة".. مُنَى المريضة عجزت عن النطق.. وكان هناك غيرى كثيرون. وكانت سيارات تقبل وســـيارات ترحـــل تحت زرقة الصباح الأول.. شعرت باليقين يتملكنى وأنا أفتح "شَدَة" الميدان"*.. لارتدى الأفارول وألبس البيادة.. عرقت .. وصاح صائح: لا مفر. وقلـــت فى نفسى ليكن. وصاح صائح: بنتى بنتى. وقلـــت بدا: وجهها باهتا خلف غلالة رقيقة.. ثم .. لم أعد أقول "بنتى" وعيون مبهمـــة تنتظرنـــى. فهمـــت. وكلمات غامضة تحركنى.. عرفتُ.. إلى مساحات رملية بعيدة أسلمتنى إلى وجوه قلقة، إلى "دُشْـــمة"* مكبلا بسلاحى و"شَدَّتى"، يهبط من فتحتها وجـــوه

---

* الشدة: مهمات الجندى الحربية الخفيفة.
* الدشمة: حفرة تضم الجندى والسلاح.

ونسمات وأصوات غامضة.. فتذكرت "وحدتى" التى غادرتها منذ ثلاثة شهور، ورأيت المدفع الصغير ١٢.٧.. عدو الطائرات المنخفضة.. وحوله نعمل نحن أفراد الطاقم. نرصد الهدير اللعين.. ارتجفتُ وتوارى الوجه المحموم الحبيب بالمسافة والعمل..".

(٤)

.. دقت الساعة دقات لا أحصيها. أمشى.. أدور مع دورة الجسر.. لا أسمع وقع خطواتى. أنزل وينزل عنترة. أنزل نكرة لا يعرفنى أحد.. أمضى اتجاه المدرسة..

توقفنى على الناصية صحف الرصيف "بمانشيتات" عريضة وحمراء.. أشترى الأهرام. أطويها وأضعها تحت إبطى الأيمن وأتابع.. أميل مع الرصيف إلى الشارع الضيق.. المدرسة فى الوسط "القِربِيّة". أقترب دون رضا.. أقدامى مترددة..

أصوات الطلاب المنتظرين تصل إلىّ.. تصل واقعا أليما لا أرغبه.. نَفَسى يضيق.. أقف وأتسمر لأدلّك نشاطى

وأحفزه. أسحب الصحيفة، وأفردها: "المانشيت" الأحمر صارخ يعيد بصر الأعمى، ولكن عينى لا تقرآن الحروف.. ثمة صور وأصوات فوق الحروف لا تمكننى.. تدفعنى إلى الحركة فأتقدم ناحية البناء بصور ذات أصوات نشطة: ".. نادوا ونادوا بأصوات آمرة حادة وصارمة:

"كنت قد غفوت بكل ملابسى بعد أن بلغت الجبهة. توسدت شدتى وقبضت على سلاحى. غفوت وأنا أنتظر الجواب. صعدت قبل أن تطرف العين. السرعة. السرعة. لبيت الأصوات الآمرة. شعرت براحة تغزونى وقلت لنفسى إن قلبى لا يكذبنى. وكان قد بدأ الشروق. ضمونى إلى وحدتى التى غادرتها -مسرّحا- منذ شهور ثلاثة. لقيت كل الزملاء. لم يتخلف أحد. ابتسمت لهم. ابتسمت لأول مرة منذ فجر أمس. تعانقنا بحرارة وتساؤل صامت لا يبين. لكن سألتهم فقالوا: لا نعرف، ثم قالوا: "مشروع" ثم قالوا: "مجرد تنظيم"، ثم قالوا: "اختبار لسرعة التجمع"، ثم قالوا: "لعلها الحرب"، ثم عادوا وقالوا: لا نعرف. لكن قلبى قال لى كلاما

واحدا.. وقال القائد فى الفجر بلهجة صارخة:
"اسمع الجنود: سوف نعبر هذا الماء لنحرر ونسترد. و.."

(٥)

.. الباب باب قلعة يفتحه عم "حنفى" البواب للمدرسين والعاملين فقط. الباب مغلق يفتح بالطرق أو النداء.. أقف أمامه دون أن أطرق أو أنادى.. أصوات التلاميذ العالية فى الداخل تذكرنى بوقوفى، بحيرتى بتمنّعى، بحصارهم، بقرارهم، وبحكمة الصين المشهورة: " لا أسمع ولا أرى ولا أتكلم" آه .. هل تغادر القرود الحكمة متكلمة سامعة مبصرة؟!

الأصوات -تعود- تصك أذنى بقنابل وصواريخ وأزيز طائرات منخفضة مهاجمة.. هل تسقط من الحكمة أصابع الأذنين والعينين والفم؟ .. هل يتحرك التمثال وينطق؟.. أنا لست أنا يا عم حنفى، فلا تفتح الباب للذى ليس أنا. يا عم حنفى أنا راجع فاعتذر لى. أنا راجع. قل حضر ولم يرد. قل حضر ونادى ومات. قل أجلسته راضيا طائعا على قاعدتها. قرود الحكمة.. قل..

وقاطعني صوت أعرفه:

- افتح يا حنفى.

أتلفّت إلى مصدر الصوت الذى صدر غدرا وسوطا. خامسنا. خامس أبطال النصر يتأبطنى وباب القلعة ينفتح. نصعد معا الدرجات. الجبل القائم صعدناه. صعدناه بحذر. السقوط من فوق قمته.. الآن نجلس بعض الوقت فى حجرة الناظر..

تابعنا المحتفلون يتوسطهم مدير المنطقة التعليمية. ننهض ونمضى إلى المسرح. يستقبلنا التصفيق الحاد معجبا ومحييا.. عيناى تتجولان فى المكان.. تتصدر الجدران صور تعلوها كلمات: "العبور التاريخى" "العبور المعجزة" -"قهر الجيش الذى لا يقهر!" - "الخط المنهار" .. وألصقت أعلام العرب.. ألصقت صور وصور وصور و.. و..

(يسر إدارة المدرسة أن تقيم هذا الحفل تحية للدور المعجز الذى بذله أبطالنا و..)

".. تلقينا الضربات المجنونة ليلا ونهارا..

وكنا نكبّر ولم نتراجع هذه المرة. كنا مصرين.

كان التقدم إلى الأمام بسرعة هدفا ورجاء وأمنيـــة رغم كمون الخطر فى كل خطوة و..

(.. إن العالم قد اندهش.. العدو قبل الصديق.. ويحـق لجماهير العرب أن ترفع الرأس وتعلو وتصعد وتطير وتضحك وتأمن وتتنفس وتغنى وتنام وتفرح وتضحك وتضـغط علـى مخارج الحروف و...)

"..وجاءت منى وأنا أكبر مـع المكبـرين صفراء تئن ببابا. فى زوار فجر رحلوا والنـاس نيام. فى استغاثة طواها هدير "كاسح"، "غـاطس" لطائرة معادية أطاحت بأجسـام الموقـع.. طـاقم المدفع المضاد، فطارت الأجسام وتحطم المـدفع: الشظايا.. الأشلاء.. تنـاثرت.. الأجسـام الحيـة (كانت!) رؤوس وأذرع وسيقان وأقدام، وتفكيـر، وناس ينتظرون شوقا عـودة الغـائبين. وأطلـت رؤوس بغير أجساد عليّ مـن حافـات الحفـرة. فزعت، وهربت بعينى إلى القاع حيث أقف فرأيت

لونا بنيا على وجه الرمل رسم خطوطا وبقعا ودوائر متنوعة الأشكال... و...

(.. استرددنا الكرامة والعزة. طال الصبر ولكن الإرادة لم تهن. سقط شهداء لنحيا نحن.. الطريق الطويل لشاق قصّره ويسّره أبطالنا.. أبطال النصر.. و..

"...تلقفتنى أيدي أطباء راحوا بعناية يفحصوننى، كبلونى بأجهزة وآلات طبية متنوعة، وأسمعونى كلاما مفعمًا بالبشر والتفاؤل، ثم ابتسموا فى وجهى؛ فعرفت أني نجوت، وعلق القائد على صدري وسامًا ملونًا، وقال: صمدتَ وأسقطتَ الطائرة التى أغارتْ على الموقع، فقلت في نفسي: بنتى "منى"، وقال: أنت رمز المقاتل الجديد. وقلت: بنتى الآن. زوجتى.. فَجْرى.. منزلى.. حيّي الآن. وعدتُ بشهادة تشهد بخط أنيق أن "المذكور أبلى بلاء حسناً" لأزين بها صالة منزلنا.. ولما فتحت بابنا كانت زوجتى الحسناء متشحة بالسواد، وكانت نحيلة، وكانت صفراء، وكانت ميتة فوق مقعد تحت صورة كبيرة لصغيرتنا الوحيدة منى. لم تهب

زوجتى الميتة لاستقبالى.. فقط أدارت وجهها ناحية الصورة وأطرقت، وقالت دون أن تريني عينيهـا: "منى" ماتت..ماتت.. و..

(.. الآن يتكلم واحد من هؤلاء الأبطال الذين صـنعوا المعجزة وقهروا الأسطورة الكاذبة.. واحد من بواسلنا يحـدثنا عن قليل من كثير مما حققناه فى حربنا).

التصفيق يفرقع فى القاعة المزينة. أنهض.. يحتد أكثر تمتد يدى إلى "المايك" الخشن تقبض عليه.. أصمت..

لسانى ساكت فى فمى المغلق. أنقـل نظراتـى بـين الوجوه... الصف الأول، الثانى، الثالث والرابع والخـامس.. أصل إلى نهاية القاعة.. أفتح فمى لأتكلـم لأخطـب لأقـول كلمتى.. كلمتنا.. ولكن لسانى مازال ساكتا لا يتحرك. فعيناى على تمثال الحكمة الصينية.. فتتراخى قبضتى وأحملق أكثـر: تثب من قاعدة التمثال القرود الثلاثة. تثب وثبا فـوق رؤوس الحاضرين.. تصل إلىّ. تنزعنى القرود ولا أعترض. ترتد بى عائدة إلى نهاية القاعة ولا أعترض. تغرسـنى فـى القاعـدة الصلدة وتهرب ولا أعترض.

نوفمبر ١٩٧٤

مقاطع من أغنية غير مسموعة..

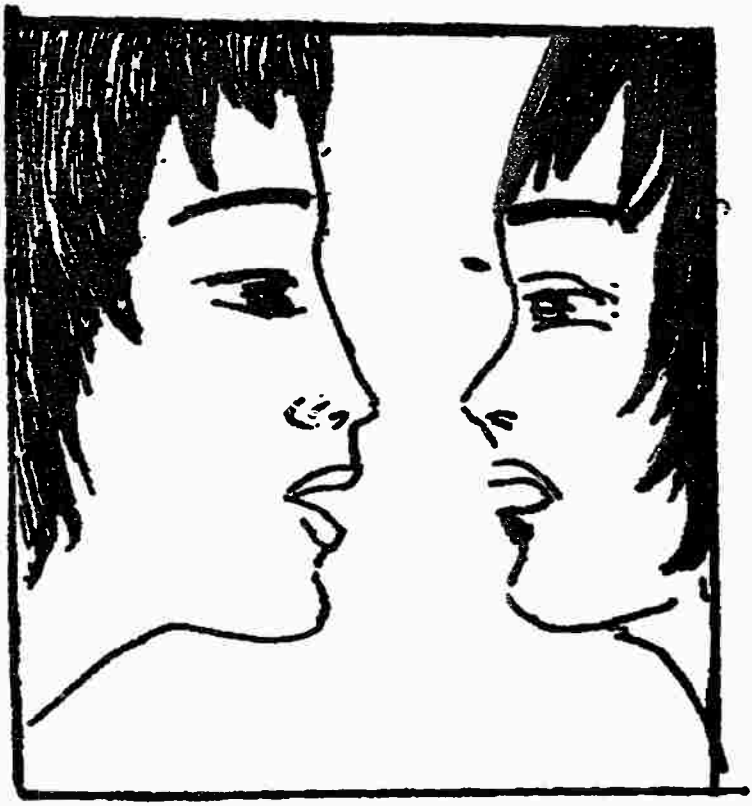

مقاطع من أغنية غير مسموعة..

المقطع الأول:

.. مربع النافذة الزجاجى مازال يطل علـــى المشـــاهد النحاسية. أهجر المرآة وأقترب.. أراهم يطلبون عنق المطارد تحت سيف الشمس القاطع.. رماحهم الذهبية ملحـــة لا تمـــل، مصوّبة، خبيرة جانية تعلو صيحاتهم الآمرة المنذرة. لكن خطاه الكليلة تضرب وجه الرمل.. لا تصدع رأس العنق المطلوب. تعرف.. ترجو تلا رمليا غير مرئى..

أرجع إلى المرآة مبتعدا عن الشراسة، هاربا من المصير المنتظر، فأتكئ على صورتى المعكوسة تمثل الوسامة والأناقة.. أصعد من مثلث "الكرافتة" تشنقنى إلى ذقنى الحليق إلى جبهتى إلى شعرى الأبيض الجائر على شعرى الأسود..

أفقأ عينى برمح ذهبى فلا أبصر غير سهرة حافلة أغشاها وزوجتى بعد قليل، لنتلقى قسرا ضربات واعية فى مقاتلنا بينما نحن نبتسم..

أفتح لأجدنى بأناقتى ووسامتى.. رأسى الأبيض الأسود. لا أبتسم.. أنا مستعد. علينا إذن أن نذهب إلى الشقة رقم (٥) المضيفة هذه المرة: نحن سكان الطابق الثالث نلتقى أسبوعيا لنتحدث ونأكل ونشرب ونفرح ونحزن ونغضب ونجامل ونمضغ لحما نيئا ونسفك الدماء.. وتساءلت في نفسي: هل انتهت زوجتى لنخرج إليهم؟ أنا تقريبا انتهيت. بل انتهيت فعلا.

سألتها بصوت:

- انتهيت؟

فردت بسرعة.

- بعد قليل أكون جاهزة.

أتحول عن المرآة بصوتها الرفيع الحانى. أسعى إلى المربع الشفاف لأشهد الرماح المصوبة على ظهر المطارد الصحراوى... أنا مطارد يا خلق بآكلى البشر..

تأخرت.. فكررت السؤال:

- انتهيت يا عزيزتى؟.

أسمع صدى صوتى يختلط بزئيرهم تحت ومضات الرماح، وبأصواتهم المنكرة تضطهد الهارب المثخن.

صحت بتوتر:

- تأخرنا..

أرتد إلى المرآة لحظة وأضجر.. فأعود إلى مربع النافذة أراهم منتشرين.. تبرق تحت الضوء عيونهم المطاردة منذ اللحظة الأولى، وتذكرت أول اجتماع انضممنا إليه:

"اجتمعنا نحن سكان الطابق فى الشقة رقم(١) بقصد التعارف.. كنت سعيدا ضاحكا مستبشرا أحتوى بعينى زوجتى السعيدة، وكان الجميع يلاحظون سعادتنا وبشرنا.. وفجأة تغيروا

وغيّروا.. سألوا وسألوا وسألوا وألحوا بوجوه جامدة ونظرات متعالية. اغتممت واختلّت زوجتي.. عبسنا، تبدى الأمر كما لو كنّا ضمن حكاية مروية للمرة الألف.. لقطة سينمائية رأى المخرج ضرورة إعادة تصويرها، فرأيتني كرة أعلو وأهبط وأعلو.. نظرت فوجدت العيون لامعة واسعة تبرق كالرماح تراقب وتحسن المراقبة، ثم تنصرف بنا إلى صغار كثيرين متفاوتة أشكالهم وأطوالهم وأعمارهم ملكوا أقداما وسيقانا وأزرعا وأكفّا وأصابع ذات أظافر بيضاء صغيرة، وعلت رقابهم رؤوس بعيون وأفواه وشفاه وأسنان صغيرة.. وكانت لهم رائحتهم. فهبطت وهرعت بامرأتي إلى الباب. إلى الممر إلى المسكن إلى الفراش نسرف.. ثم وثبت إلى قلب المدينة بل الأسطح بل الجدران بل الشوارع المهجورة بل الأطراف أسلمتني إلى خلاء الصحراء نعامة تبحث عن تل الرمال.."

المقطع الثانى:

.. أنا جميلة ومتفوقة على غيرى من النســـاء. نســـاء الطابق والعمارة والحى.. متفوقة على كل نســـاء المدينـــة. لا غرور: تشهد مرآتى ويقلن ويقولون.

أختار لقوامى الرشيق من الملابس ما يناسبه، أعـــرف كيف أنتقى "الموديل" واللون والحذاء، أجيد فهم الناس. أجيد فن الحديث والطهى وإعداد المائدة..

مجدّة فى عملى. الرؤساء يثنون والـــزملاء راضـــون. باختصار "أنا أملك ميزة الحضور" كما أســـمع مـــن رجـــال جاراتى الخمس: جاراتى الخمس وإن كن عاديات لا يلفتن ولا يثرن لكنهن يُجدْن فن الإغاظة والتعذيب والتنكيل والعبث دون مراعاة لمشاعري رغم أنني لم أسئ إلى أى واحدة منهن.

سمعت:

- انتهيت؟!

هذا صوت زوجى يسأل فينبّه. أقول وأنا أتابع النظر فى المرآة:

- بعد قليل أكون جاهزة.

وألقى على الجميلة فى المرآة نظرة أخرى وأخرى وأخيرة.. صبرا صبرا.. أبخّ العطر على صدر فستانى البنفسجي. أطمئن على وردة الصدر البيضاء. علىّ أن أبدو كما عهدوا وكما عهدن؛ أنيقة جميلة لا تفارقها "ميزة الحضور". ينتظر سكان العمارة الجارين الآن، لتبدأ سلسلة العذاب والترويع.

غير أن يدىّ تتوقفان: الشرفة تغرينى فأطيع. أرى.. متقهقهر خلف الزجاج مشهد الغروب الأورجواني، والظلال المتوازية والمتقاطعة تبدو لعينيّ مثل أشخاص تتحرك فى المسافات البعيدة..

أفتح النور وأخرج. أدنو من السور وأرتفق حافته الباردة.. أجدني أبتسم بينما الكآبة ساقطة فوق الأشياء تغلف وتغلف حتى الأطفال تحتى يلعبون تغلفهم الكآبة أنظر إليهم.. أرقب وأحصي..

كم؟ ..ولد.. بنت.. ولد.. وبنت.. وولد وولد وبنت و.. ياه. ضاحكون مرحون. هل يضحكون ويمرحون من القلب..؟ أفضل لهم أن يكفوا. نصيحتي لكم يا أولاد أن تكفوا؟.. إنهم لا

يضحكون ولا يمرحون.. أنتم تصنعون العنف والقسوة والمرارة يا أولاد، وتذكرت أول لقاء تعارف:

"دعينا للتعارف منذ عام فأجبنا. جلست بين النساء وتوسّط زوجي الرجال.. تكلموا وصمتوا وتكلموا. وكان زوجي متكلما بارعا.. وتحدثت النسوة وقلن.. ولكني تحدثت وقلت.. وكان صوتي مرتفعا لبقا ذكيا متحضرا عن أصوات جاراتي.. لكنهن فجأة سألن وألححْن في الأسئلة؛ فعبس قلبي وانكسر.. سكتّ.. أسكتْنني.. صعدت إليهن عيني. كن عاليات جدا. ارتفعت فجأة مقاعدهن. وانخفض مقعدي. وقلن يواصلن: "متى يحدث"؟ وكررن: "متى يحدث؟ متى؟ متى؟". تأملت خلف شفاهن أسنانا بيضاء حادة، وألسنة حمراء متوترة. فشعرت بحاجة إلى التبول. ونهضت أقصد الباب، وقام زوجي يحتويني بعناية. فاصطدمت بأطفال انتشروا على الأرض وفوق المقاعد، وعلى الجدران. تحاشيتهم، ولكن تعلقوا بعنقي وثيابي

وساقى. اندفعت بضغط البول. انـدفعت بـالقهر.. خرجنا، ودخلنا شقتنا. خلعنـا وارتـدينا وخلعنـا ليرفعنى زوجى فـوق الأشـياء، فـوق المقاعـد العالية.. ويغادرنى مجهدة لأفواه صغيرة. لرضّـع وأطفال وصبية بشفاه صغيرة، وألسنة تكالبت على ساقىّ صغيرة.."

المقطع الثالث:

الظلال..

الظلال الرمادية تتسلل إلى الغرفة بجسـارة. غابـت الشمس وغاب الغروب فلا أرى الأنيق الوسـيم. أنظـر فـى ساعتى بلا حماس: يجتاحنى همّ ثقيـل يحيطنـى ويقعـدنى.. يدعونى إلى تجنب الكلام والسمع والرؤية، يحثنى على العَنْو.. أستعذب حلاوة المطاردة الذهبية. تشجينى أصواتها الرديئـة، أنفاسها وأقدامها الرديئة..

مراسم السهرة تبدأ.. مراسمكم تبدأ وتستمر: الأبـواب تفتح وتغلق، الكلام والصياح والصخب.. تصـعد يـدى إلـى

الكرافتة لتفك المثلث. لا أرغب ولا ترغب زوجتي – أعلم – فى المشاركة. أسقطونا من حسابكم سيداتى وسادتى. اطرقوا بابنا فلن تجيب الشقة رقم (٢). صَمَمْنا ضرورى..

اطرقوا اطرقوا اطرقوا فلن نفتح. لنّتكم –نعلم– فى عرقنا يتصبب.. الرماة طلاب عنق المطارد الصحراوى يفعلون، يتلذذون بالعرق يتصبب نسبح فيه، عظيم جدا ورائع. أنتم تجيدون مراسمكم لصنع السيقان والأذرع والرؤوس والأفواه والملابس الملونة تملأ المدينة والصحراء وغرفنا بالرعب والصياح والرماح الفضية الذهبية..

– مستعد؟

زوجتى تسأل:

– أنا جاهز.

أخرج من الغرفة إلى الصالة.. أتوقف فى المنتصف.. أوجه ناحية باب الشقة وجهى: الأبواب تفتح وتغلق وتفتح:

تعبر بابنا أقدام كبيرة وأقدام صغيرة. سكان الشقتين(٣)، (٤) صغار وكبار يضحكون. يمشون إلى الشقة رقم (٥) المضيفة .. آه. خلف مربع النافذة بدت الأشباح تطارد

الرجل. أرجع فأصطدم بمقعد: الصالة الوثيرة. بذلت زوجتي مجهودا شاقا ليبدو فيها كل شيء جميلاً يريح العين والقلب. فلأرح العين والقلب.. لكن لا أفعل: يجتاحني -يعود- الهم مثبرا في القلب الأسى والغيظ، فأمد يدى إلى مفتاح النور وأغلق لتسبح الصالة الجميلة المريحة في الظلام والغموض..

أطمئن قليلا. أجلس وأنا أفك مثلث العنق. الحرية.. الرمال الممتدة لا يدركها البصر.. أليس للهرب نهاية؟! كلهم الآن داخل الشقة المضيفة. رائع فبابنا لن يطرق. رائع.. لكن عيونهم أراها معلقة ببابهم ترقب.. يتكلمون. يلوكون ويسفكون ويتنصتون..! أليس للهرب نهاية؟ أليس للهرب نهاية؟! فكرت في أنني مرة قاومت الهرب، فسعيت بها إلى الطبيب:

"فزعنا إلى الطبيب فانكسر همنا بابتسامته المشرقة. تعلقت عيناى وهو يتحدث بصور بعثت في نفسي بعض التفاؤل. وسأل الطبيب وسأل و.. كتب وأرخ ووزن وحلل.. ثم جذبتني الصور فابتسمت.. ودَعَتْ ممرضته زوجتي وتوارت بها خلف ستارة بيضاء، وقام الطبيب واختفى معها خلف الستارة البيضاء. تابعت للحظة أو للحظات

أو لساعات وهى تتحرك -الستارة البيضاء.. ثم عدت إلى الصور تعلوها مؤهلات الطبيب العلمية. و"مراحل الأجنة"، و"شعر ركيك" يمدح صاحبه طبيبنا المظفر مصدر بكلمات "بفضلك أنجبنا ورأى ابننا الحياة فأشاع فى القلب الفرح" .. و.. ثم سمعت زوجتى تئن فى يدى العبقرى خلف الستارة البيضاء فدق قلبى وانفجر.. فحضروا بأعناق ممتدة مائلة مصابة بصعار الإبل، وداسوا بأقدامهم لافتة مزقوها.. داسوا الكلمات السحرية.. نثروها. كلماتى: الحياة.. ابننا.. رأى.. أشاع. القلب.. فى.. بفضلك.. الفرح. حاولت أن أعيد الكلمات وأرتب لكن امتدت أيديهم ومنعت وجروا وداسوا.. داسونى: لحق الجناة المطارد الصحراوى. غرسوا فى قلب الكلمات السحرية رماحهم.."

المقطع الرابع:

.. تسبح الصالة فى الظلام الصامت. أنقل خطواتى بحذر لئلا أصطدم بمقعد أو منضدة. أقصد مفتاح النور. أتحسس. ألمس.. أفتح الضوء فيسقط على المقاعد والكنب

والأركان وزوجى القابع فى مقعده. رقبته مائلة إلى الأمام. لا يرفع رأسه. لا يرانى. نائم؟! مغشى عليه؟! غاضب؟! .. وسيم زوجى وأنيق وحزين..

أمشى إليه.. أقترب.. ألتصق به.. وأتحسس رأسه، شعره الوقور الأسود والأبيض. الأبيض غالب، والأسود أقل. وأمسح جبهته. أمسح. يفتح، ويتطلع إلىّ بعينين ذابلتين.. منكسرتين وحزينتين، ثم يغمض. أهتز فتهتز فى يدى جبهته، لكنى أتجاوز هزتى.. وأتماسك ببسمة وضحكة. بمداعبات فراشنا الليلى وغير الليلى..

أقول بصوت حنون:

- قم نلحق بهم.

- أفضل البقاء.

بغير أن يرينى لون عينيه.

أقول بصوت مستحثّ:

- ينتظرون.

- ....

لم يرد عليّ. كأنه لم يسمع.. يذوب الحزن وننسى العالم كلما خلونا..

- وَعَدْنا.

يقول بحسم:

- أفضل البقاء.

جملته واحدة قاطعة، فأجلس فى مقعد يجاور مقعده وأنا أشعر بالسلام، وأثبت عينى فى المصابيح المتدلية من النجفة المذهبة ذات الأذرع العشرة.. كم جلسنا تحت إضاءات النجفة؛ تغمرنا سعادة القرب والصفاء.. وكم قال لي وقلت له.. أحب زوجي الذي اختاره قلبي وعقلي..

العيون الآن على الباب.. النساء والرجال. السهرة بدوننا عادية مملة فاقدة للحرارة.. باردة. السهرة ناقصة إذا تخلفنا. بدونكما السهرة ناقصة وجافة. آه. نحن المادة الأساسية لبرنامج الليلة.. الزهو فى الاختيال فى التأوه فى الأعناق المائلة بصعار الإبل فى العيون تسدد سهامها الجانية.. خبيثة تفكك أوصالى وتفجر مثانتى.. وتذكرني بحرصي على زيارة الطبيب:

"عرّتنى الممرضة ومددتنى على سرير الكشف وغطتنى بملاءة بيضاء خلف الستارة البيضاء. وكان زوجى جالسا تحجبه عنى الستارة البيضاء. وددت أن يكون بجانبى.. كنت خائفة مرتاعة.. وجاء الطبيب وقال كلاما جيدا مبشرا فسكت. وكانت الممرضة حنونة جميلة الوجه ومعطرة. وطلب الطبيب برقة أن أرخى عضلاتى ففعلت.. ثم أدخل برفق إصبعه، فتجمع الألم فى موضع واحد.. صرخت وغبت عن الوعي للحظات .. لكن رأيت جاراتى جئن ووقفن عند رأسى، فاختفى الطبيب والممرضة ولم يهرع زوجى. وأقبلت علىّ وجوه نساء كثيرات عرفتهن فى مراحل عمرى. كن جميعا يحتبسن الأنفاس انتظارا لتحقق المعجزة. لعنت الوجوه ولعنت.. فتحت عينى وصرحت للطبيب بأنى مشتاقة للمعجزة. ولكنى لم أسمع جوابه.. غبت مرة أخرى عن الوعي لأجدنى مفردة. طفلة تلهو، صبية تحلم، شابة ترقب مجيء الفارس الشهم يجعلها امرأة ككل النساء الكاملات المكتفيات..".

المقطع الخامس:

.. أقدام حذرة تدق بلاط الممر.. تقبل على بابنا الموصد.. النور فى عينى ساقط فوقى، وزوجتى الجميلة بجوارى مطرقة.. كم مضى من الوقت؟ منذ متى ونحن جالسان؟!..

الأقدام تتوقف.. أعرف الهوية. يضغطون "زر" الجرس. الرنين المتقطع.. مؤدب.. متردد. يسكت برهة ويرن. يسكت ويرن. تصميم. لكن قلبى مغلق كبابى وأنا كسيح، وأنا ضرير، وأنا.. المطارد الصحراوى سقط تحت التل نعامة تنبش بالرأس الرمال.. لا تحاولوا..

الرنين يتواصل.. غير مؤدب. بأصابع متشنجة. صبورة وغبية لكنا لا نحتج. نعرف. نتوقع فلا نهتم. نسمع رنين جرس متتابع فى تمثيلية مملة.. آه.. يشتد.. حاد. يوترون الأعصاب..

أصوات تأتى دفعة واحدة. ثم يتكلم واحد يقاطعه آخر، يقاطعه ثالث، ثم تعود الأصوات مرة أخرى دفعة واحدة.! لا أحد يجيب. غريب. هل نسيا الموعد؟ تبدو الشقة خالية. علينا

إذن أن نرجع. لكن النور ظاهر أسفل الباب. ربما لا يسمعان وربما لا يريدان. لا إنهما ليسا بالداخل. لا إنهما بالداخل لم يخرجا. فلنواصل.. فلنواصل..

يصم الأذنين الرنين العنيف المؤثر.. آه.. تعلو أجراس كنائس الأحد! يضيقون إلى الأجراس الأيدى والأقدام. يقرعون الباب. يدعون سكان العمارة والشارع والحى والمدينة إلى قرع الباب. أنتم تعذبون. تقتلون قربا وبعدا، صمتا وكلاما، سكونا وحركة، رفضا وقبولا. إنهم يلاحقون بنظرات الفضول وابتسامات الاستفزاز:

".. سيدى .. متى يحدث؟ فأجاب الطبيب معتمدا على أوراقنا: ليس بك ما يمنع وليس عندها ما يمنع، وسوف يحدث.. متى يا سيدى؟ متى يا سيدى الطبيب يحدث؟. قال: ربما الشهر القادم أو بعد القادم. أو بعد بعد.. كان الرجل حكيما ومبشرا ولم تفارق شفتيه الابتسامة. لكنى تطلعت بعناية إلى حروف قصيدة المدح تعلوه وقلت إننا نحتاج إلى معجزة يا سيدى. فأوصى بالصبر وبالصبر

وبالصبر. وقال جيرانى لما عرفوا: عليك بـآخر، فأكد الآخر رأى طبيبنا المظفر. فعدت إليه وقلت: متى أمدحك يا سيدى بقصيدة؟.. واختال جيرانـى ووضعوا السيقان فوق السـيقان، ولـووا أعناقـا مصابة بصعار الإبل، ودخنوا السـجائر واعتلـوا مقاعد عالية جدا فوق منصة عالية جدا. وتعالـت ضحكات وصيحات استفزازية مرعبة..."

أنهض إلى الباب.. مسافة ذراع بينى وبينكم ولكننى لا أفتح. أعطيكم ظهرى. أنـتم المحقـق، والشـاهد والحـارس والسجان والجلاد، تحاكموننا متهما واحدا بريئا مظلومـا.. آه. لقد تلقفتنى الشوارع والجدران والأسطح وفراغات الصحراء، "مطاردا" بالرماح الفضية الذهبية تحت خيوط الشمس المتمكنة، "نعامة" مذعورة بتصميم المطاردين.

آه.. لقد أضنى الجرى والهـرب والعنـف والقسـوة "المطارد النعامة".. ولقد أجهده ودوخه بريق الرماح الباحثة.. وها هو بعينى النعامة يعثر أخيرا على تل الرمال المنشـود..

الأمل والخلاص والنهاية الجبرية. فأتحول عن الباب مـــازال يرن ويُطرق ويرن ويُطرق و..

أبلغ غرفتى وأفتح النور. يغشينى بالضوء والحـــزارة والسكينة.. ألاحظ مربع النافذة الزجاجى لا يظهر مطاردة ولا بريقا ولا نعامة ولا تلاً.. أبتسم وأخرج لسانى يابسا وأتجه إلى مرآتى وأخلع ملابس الخروج..

المقطع السادس:

.. الرنين والطرق معا.. آه.. أصابع وأنياب وأظـــافر تغرس فى تلافيف المخ. أغيب وأصحو وأغيب. كل جـــاراتى يشاركن الأزواج الصناديد. كل الصغار ينادون. بشر العمـــارة والحى والمدينة يحاصرون.. يريدون أن نخرج إليهم.. لننضم إلى السهرة التي انعقدت. الحوامل والصناديد والصغار يتوقون إلى جلسة المساء التي لن تكتمل إلا بنا. على مـــن ســـيتفاخر الصناديد؟! على من ستتظاهر النساء بوجع الظهور؟!..

زوجى الحزين فى وجهه خرائط الألم. أفهـــم نظراتـــه ويفهمنى. أراه يذهب إلى الباب فأبتسم مطمئنـــة. لـــن يفعـــل زوجى. لن يفتح. ولن يجيب. أثـــق فـــي تقـــديره. وحكمـــه

وتصرفه. يدرك أن جلسة المساء ليست صافية. لا يريدني أن أتألم، لا يحب أن يرى النظرات المستفزة.. لن يفتح زوجي ولن يجيب..

سيداتى المقتدرات، عبثا تحاولن.. واسمعن. ما عدت أهتم، وما عدت أفزع، ما عدت؛ لن يضيرنى السلخ. لقد ذبحتن. ما عدت أفزع ما عدت.. لن يستدرجني أحد لأنفعل. لا أسمح بالإثارة. أنا واثقة من نفسي. ولن أمكن أحدًا من استفزاز مشاعري. لست معذبة حتى الآن على الأقل. زوجي يكفينى. نعم زوجي يكفيني. ولكنني مرة أحسست بالخوف والرعب فأسرعت أستشير الطبيب:

".. حذرنى الطبيب من الانفعال وأوصانى بالصبر.. ولما سألته عن دواء قال إن الحالة لا تستدعى أى دواء. وقلت لابد أن تحدث المعجزة، فطمأن وحذر وأوصى.. ولما طال الانتظار فقدت حماسى فى مقابلة الناس..

وطرقن بابى وأنا أحتسى وحدى شاى المساء.. كان زوجى خارج المنزل.. سألننى بفم

واحد: تتجنبين الزيارة والكلام؟ فقلت: هل أعد شايا؟. وركضت إلى المطبخ وعدت بالشاى.. وسألننى -عُدن- بفم واحد: ماذا قال الطبيب؟. فأخبرتهن أنه لم يجد لدى ما يداويه، فمصمصن وزُمن كقطط بكلمات غامضة فانفكت أعضائى.. وشعرت بحاجة إلى التبول، فهرعت إلى الحمام ولكنى لم أفعل.. كنت وحدى وكنّ كثيرات يحققن ويحكمن.. وحين عدت وجدتهن يتمايلن ويتأوهن ويتوجعن ويسندن جميعا الظهور بأكفهن.. كنّ حوامل.. ثم طوّقن بأحاديث غريبة علىّ. تكلمن عن الوحم والقىء ولون الدم وانقطاع الطمث وحركة الجنين وخفة يد الطبيب واسم المولود القادم. ثم أمسكن وقلن بفم واحد ساقط بينما كانت نظراتهن نازلة علىّ: عليك أن تستشيرى طبيبا آخر. وحينما قلت إن (آخر) قد رآنى ووافق الأول -زُمن- مرة أخرى- كقطط قلقة. تكلمن بكلمات غامضة قارسة. فذهبت إلى الحمام.. ولكن سرعان ما رجعت إليهن لأننى لم أفعل.. ولما رفعت

الأكواب إلى المطبخ سمعت ضحكاتهن تفرقع فى الصالة. كانت ذات معنى واحد فهمته. فارتفعت وهبطت وارتفعت وهَوتْ مطارق على ألواح نحاس فى رأسى أوجعتنى.. فهبطت مرميّة على بلاط المطبخ البارد.. نشدتُ الحمام وهنّ يواصلن الضحكات ذات المعنى الواحد الذى فهمته.. نشدت ولكننى آخ.. بُلْتُ قبل أن أنهض.. تبلّلتْ ساقاى وشممتُ الرائحة. فصرحت ولم يسمع أحد. كانت أصوات الضحك الذى فهمتهُ أعلى من صراخى.."

آه.. وأغادر مقعدى وأعطى ظهرى للباب يدق يدق يرن يرن.. زوجى دخل غرفته دون أن يتكلم. أدخل أنا الأخرى غرفتى بغير كلام.. ها هى الغرفة هادئة ساكنة راقية. أضىء الأنوار وأصوات الباب تخف.. وتقل وتتوقف. أنصت فأبتسم ليشرق فى رأسى عالم جديد لم أكن قد عرفته من قبل.. أغشى عالمى الجديد وأنا أتجرد من ثياب الخروج وأرتدى.. بينما أراقبنى جميلة فى مرآتى..

فبراير ١٩٧٦

النبش فى تقاطعات الرداءة..

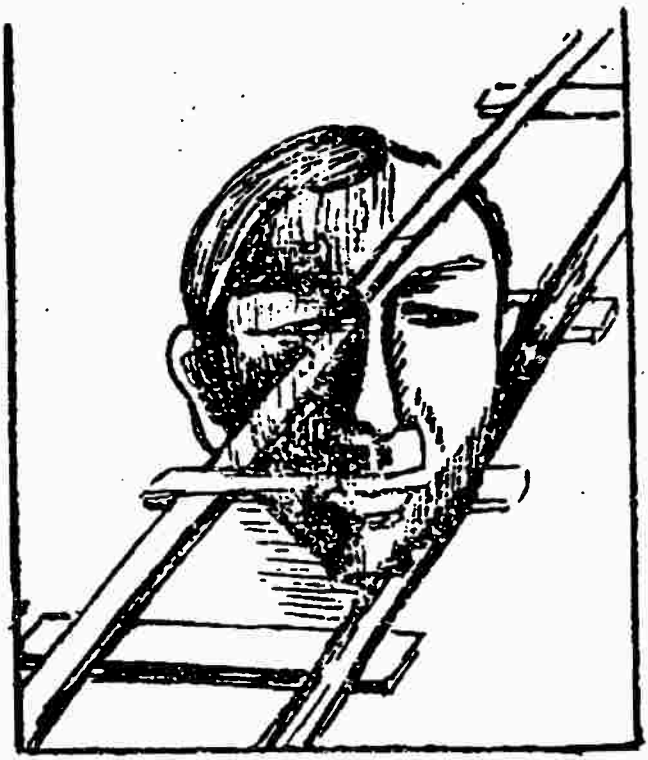

النبش فى تقاطعات الرداءة..

(١)

.. مكتب المحقق يتوسط الغرفة المضاءة بالنيون الباهر. المحقق منكب على ورقة بيضاء خالية يخطط فيها بقلمه الأسود الأنيق. يخطط بخطوط حائرة.. على يمينه الضابط المظفر الذى اعتقلنى، تعلو كتفيه نجمات أربع، وترتسم على الوجه ابتسامة صفراء باهتة، وخلفه ثلاثة جنود بشرائطهم المتفاوتة وابتساماتهم الصفراء، بينما ينتظر الكاتب الكلمات التالية بعد أن فرغ من تسجيل ما أدليت به:

الاسم؟ السن؟ العمل؟ محل الإقامة؟ الحالة الاجتماعية؟.

مستعد -الكاتب- ولكن بابتسامة مماثلة: صفراء باهتة ومعادية.. كيف أضمن سلامة التحقيق؟

المحقق مهذب. هادئ وغامض. أنا أمامه غير مصدق. قلق ومتوتر. يتوقف عن التخطيط برهة ويرفع رأسه. يتفحصنى -طويلا- بنظرة ثاقبة ثم يطرق ليعاود التخطيط على الورقة البيضاء الخالية من أية كلمة، فأزداد توترا ليندفع فى الأذنين صفير حاد لقطار قادم.. أفكر فيما حدث.. فى صور غريبة تلاحقت سريعة رعناء متشابكة: الجسد المطعون فى الفراش الدموى، التليفون فى صوت السيارة بوق مميز، فى الضابط المختال والجنود حضروا فاتحين: اقتحموا.. حاصروا.. أنا الذى اتصل بكم.. كبلونى. أنا الذى أبلغ.. تجاهلونى.. أنا صديق قديم. تحولوا وحرزوا واتصلوا فجاء آخرون بالملابس المدنية. وجاء طبيب. أجرى الكشف على القتيل. قلبوا الجسد المطعون.. قلبوه جميعا. قلبوا صديقى القديم ثم قادونى..

يد المحقق تكف عن التخطيط فجأة.. يسأل بشراسة متخليا عن غموضه:

- شكري مختار: ما سبب تواجدك فى شـقة المجنـى عليه؟

آه.. أعلن عن نفسه. انجاب الغموض وبدأ الهم يتملك. الصفير القديم للقطار العتيق القادم يقبل من بعيد وأنـا مكبـل مرمى على الخطين المتوازيين:

- كنا على موعد..
- لماذا؟.. لماذا؟

بصراخ عدوانى.. أتردد لحظة لأفكر فـى الحصـار المحكم بالجهات الست الموصدة الصماء، وبمشاعرهم العدائية.

- لماذا؟ .. لماذا؟ ... أجب.

الصوت الصارخ محمل بصفعات الغضـب: ملـحّ لا مفر، ولكن الحال لا تمضـى فـى صـالحك. ومـن الخطـأ الاستمرار دون محام. ولكن الإدلاء بالسبب ضـرورى فـى مواجهة السؤال القائم.

- لنحتفل بإنهاء خلاف قديم.

وعلىّ أن أندم لما بدر: كلمة "الخـلاف" يسـجلها قلـم المحقق الغاضب على الورقة التى لم تعد خالية. "الكلمة" مدخل

إلى متاعب صارت محتملة الكشف. تفتح بيدك بابا ما كان يجب أن يفتح. سوف يولدون السؤال من السؤال لتتكاثر الأسئلة المعذبة المحاصرة. لابد من محام لتكون الأقوال موجهة. الإجابات الغبية تثير وتشكك الدائرة. تكشف عن المستور..

المحقق يبتسم بعينيه الخبيرتين، المدربتين فيعاودنى الصفير القادم. أضع أذنى فوق الشريطين الباردين أنصت للجلبة الرهيبة القادمة.

- معلوماتنا أن القتيل لم يكن له خصوم غيرك يا شكري.

- سيدى: اعترفت بالخلاف، ولكن لم أفعل.

- كنت وحدك فى مكان الحادث.

- سيدى: لن أتكلم إلا فى حضور محام.

- فيما بعد. أجب الآن على أسئلتى.

- لا تنس أننى الذى أبلغت عن الجريمة.

- لا تنس بصماتك.

- سيدى: يجب أن يحضر المحامى.

- وخلافكما مشهود ومشهور. هل أذكّرك؟

- سيدى: أنت تتهمنى.. هل أنا متهم؟ هل أنا متهم؟.. هل أنا...

المحقق يعود إلى الصمت والغموض. ينظر فى الورقة التى لم تعد خالية. القلم الأسود الأنيق مارس العمل. ألحظ كتابة غير واضحة.. الضابط يفرك يديه فى شماتة وظفر. أقدام جنوده خلفى تضطرب.. الكاتب يتنهد.. يضغط بقلمه الكلمات المملاة..

يرسم الجميع ابتسامة واحدة، وتراقبنى العيون بمعنى واحد "الإدانة". كيف أطمئن إلى سلامة التحقيق؟ كيف؟ أخاف.. أرتجف. العرق البارد ثم العرق البارد. وتسخن الآذان بالصفير داخلهما يقترب فأرتعد على برودة القضيبين المتوازيين. أبلل الملابس والمكان بالماء تدفعه كل فتحاتى فأشعر بالجفاف: انقطع الماء عن الشجر. انقطع. أحتاج إلى من يتكلم.. أين المهرب؟ المنجى؟ أين المحامى يسمع فيتولى المهمة؟ العجلات الوحشية تدنو أكثر منى جسدا مرميا بفعل فاعل لا أجهله..

أتهاوى أمامهم. أسقط. سقط الرجل من النافذة بفعل فاعل لا أجهله. أسقط تحت ابتساماتهم الواحدة، وعيونهم الواحدة تحت أنوار النيون تظلم الآن بينما تطبق علىّ تشابكات الصمت والظلام والوجوه المترقبة وصخب عجلات القطار تدوس الغريم وتمزقه، بينما أفكر فى صديقى الذى حرمنى من شقيقته:

"بعث إلىّ برسول مهذب. طلب أن نتقابل كى نصفى خصومة عشر سنوات. أعطيت الرسول المهذب موافقة فورية. تعانقنا فى مقهى "سبأ" أمام كل الرواد.. من يعرفنا ومن يجهلنا.. انتحينا فى ركننا القديم نحتسى قهوتين تبرع بهما صاحب المقهى العجوز. تبرع وهو البخيل تحية لتصالح النجمين.. وأخبرنى صديقى القديم اللدود أن لقاءنا قد تأخر.. تأخر كثيرا، فعاتبته على استماعه للوشاة.. لامنى بدوره على استماعى للوشاة.. وقلت فى نفسى: متى يحدثنى عن أماني؟ لقد كان ذكيا فذكر أن أماني -شقيقته الجميلة- ترملت بعد

أقل من عام. ذبح زوجها ومزق بعجلات قطار عائد من الإسكندرية. سقط. شاهد قال إنه رأى بجوار النافذة المفتوحة رجلا من ظهره ما لبث أن اختفى.. قيد الحادث ضد مجهول..

أظهرت استيائى وقلت فى نفسى إننى كنت فى رحلة خارج الحدود. وقال صديقى القديم. نحن نجمان نتربع على قمة النجومية ولم نعد بحاجة إلى الإنصات إلى أقوال الوشاة. وقال.. وقال.. وقال كلمات، مفعمة بحرارة الرغبة فى فتح صفحة جديدة.. : الآن علينا أن نلتقى ونصم الآذان عن أقوال الوشاة، وافقت من فورى صديقى القديم. لكن سألته عيناى عن جميلتى التى حرمنى منها رغم الحب، ومباركة الأسرتين.. وكان ذكيا، فأجاب بصوت معتذر صدقته: علينا يا صديقى أن نصحح أكثر من خطأ. اضطربت وقلت فى نفسى: هل يمكن أن يصحح الخطأ؟ ثم قمنا وتصافحنا وتعانقنا على باب المقهى أمام العجوز وروادة المعجبين.

وقال فى أذنى: فى عاشرة الغد سوف أكـــون فـــي استقبالك ببيتي لنجلس ونتحاور.. وافقت من فورى صديقى القديم. وبعد أن مضى كل منا إلى سيارته، انطلقت أنا بلا خطة فى شوارع المدينـــة.. لا أرى غير وجه أمانى. جميلتى الأرملة، والجسد المذبوح الممزق بعجلات قطار قد ســـقط بفعـــل فاعـــل لا أجهله.."

(٢)

.. المحقق يرتفع فى فراغ الغرفة يصرخ آمرا بصوت أجش، يأمر بالرد على سؤال مُلح.. لا أفهم. تتلاقى نظراتنـــا المتعاكسة. يحاصرون بشفاه تدين. يصرون على انتزاع كلمة تريحهم ليغلقوا المحضر فينام الفرسان أو يموتون.. "الاعتراف". أنزوى واهنا وقويا. أتحدث بصوت لا يخرج. يتحقق الزهـــو والارتفاع والاختيال لو اعترفت.. هيهات.. أنـــا وأنـــتم فـــى زنزانة واحدة بجهات ست موصدة فى وطأة زمن لا ينمو.

- لا فائدة من المراوغة.

عاد إلى الصراخ فأجزع وأصيح محتجًا:

- سيدى: هل أعترف بجرم لم أقترفه؟

- كل الأدلة ضدك. كل الأدلة ضدددك.

الجلبة الرهيبة لا تتوقف. الحديد يصطك بالحديد، والنظرات العدائية المتهمة تقرأ من "قرار" فورى مدفون فى سابع أرض.. تتبش قبرا فى "جب" مغلق بألف سقف. و..

تكسر نظراتهم المتهمة عينى.. تقهرنى. أسحب احتجاجى. أنسحب.. أنزوى فى قبر الجب المغلق واهنا غير قوى. أهرب إليهم.. إلى أحذيتهم اللامعة. أطمع فى تثبيت المعنى المعاكس.

- لن أتكلم إلا بحضور محام.

نهض ضاربا سطح المكتب. اهتزت الأشياء كلها فوق سطح المكتب.. أسمع طرقات قطار الليل العائد فوق الشريطين.. الصدى.. يزحف نوم أو عجز أو موت. أنظر فى وجوه الفاتحين ينتظرون الإشارة الأخيرة.. أسيخ فى باطن الأرض فى الجب فى القبر تحت طرقات الليل اللعينة..

- يحبس المتهم أربعة أيام على ذمة التحقيق.

تتوالى الطرقات حادة مصممة. تقترب العجلات. تحمل الصفير المهاجم.. أرتد إليه: يأمر بأيام.. أترنح.. يأمر بشهور. يأمر بسنين. يأمر بمدى الحياة، فتقبل القاطرة الرهيبة وحشاً كاسراً لتدوس وتمزق فى ليل أسود بمئات العجلات جسما سقط فى الظلمة بيد غير مجهولة.. و

أقع واعيا. تتسابق الأيدى شرهة ضائقة غاضبة مدججة بالبنادق والرماح والسيوف. تضعنى على الخطين المتوازيين فى طريق الخطر الوحشى.. كومة لحم عاجزة بعد يوم حافل بالعداء..

السيارة تجرى من دار التحقيق إلى جهة غير معلومة. أنا معصوب العينين.. أعمى داخل السيارة التى غادرت دار التحقيق إلى جهة غير معلومة. أنا والحراس المسلحون فى زنزانة السيارة المغلقة.. أفكر في وحدتي والمأذق الذي وضعني فيه الجاني المجهول، هل كان على معرفة بزيارتي لصديقي فسبقني وقتله لتلبسني التهمة؟ أم أن عملية القتل كانت صدفة، وأين هذا القاتل الذي لا بد أن يظهر ليبرئني؟..

أختنق فى الصندوق المحكم. أحتاج إلى هواء وماء ومحام. أرغب فى ابتعاد الجند المسلحين يحاصروننى بعرق

أجسادهم، وأنفاسهم فى زنزانة السيارة تنطلق بنا إلى جهة غير معلومة.

أحتاج إلى ظهور القاتل فهو دليل براءتي، أو على الأقل يرسل خطابًا إلى جهات التحقيق ليريحني. أتجشأ، أضرب سد الأجساد فينهرون. أحتج وأصيح فيضربون بالأحذية والبنادق. تدوسنى سنابك الخيل.. أموت وأفيق على نظرات المحقق النارية تحرض على كشف المستور. أصمت فرقا من ضجة الحديد الغازية المتزنة الرتيبة ونحن فى سيارة التحقيق تمضى إلى جهة غير معلومة:

"أوصلنى المصعد إلى الطابق العاشر.. قصدت الشقة. الرقم ٤٠. طالعنى اسمه محفورا فى نحاسة لامعة ثنائيا بلا مهنة "خالد العارف". مشهور. بابى مصدّر بنحاسة مماثلة "شكري مختار". كلانا "نجم" سينمائى يتربع على قمة النجومية. نحن مشهوران. دور الفتى الأول مقصور مقصور علينا. العدد: ستون فيلما.. وامتدت يدى إلى زر الجرس. لاحظت الباب مواربا. ضغطت

ضغطة واحدة.. عبرت لحظة ولحظة ولحظات. لا أحد يجيبنى. دفعت الباب ودخلت.. صفقت وناديت.. كانت الصالة ذات أضواء خافتة موزعة على الأركان.. كانت معطرة وساكنة. وقفت فى المنتصف وأنا أعاود النداء بالصوت واليدين.. تناهى إلىّ أنين صادر من حجرة فى نهاية الممر.. صفّر القطار الجامح ذو الضجة العالية.. أحسست بضرورة التراجع فورا لكن لم أفعل، بل أنكرت إحساسى وعجبت. فزعت إلى باب الحجرة فى نهاية الممر. كان الباب مفتوحا. تقدمت.. جف الدم. انقطع الماء عن الشجر.. فى كامل ملابسه البنطلون والقميص ورباط العنق والحذاء الأسود اللامع.. تمدد فى فراشه مطعونا بسكين لا تزال فى صدره.. الدم أحمر قان برائحة فيتامين تمتزج بعطر النجوم.. زادت ضجة القطار العالية. هرعت إلى صديقى القديم مذعورا مرتجفا. نزعت السكين. كان يئن. تبللت يداى بالدم الأحمر القانى. تبللت ملابسى

بُلت.. آه.. شممت أكثر ذلك المزيج مـن رائحـة الفيتامين وعطر النجـوم. وشـممت بـولى.. أراد الكلام. اقتربت من فيه. سألته: من. مـن. مـن؟؟؟ فأجاب بشفاه لا تخرج صوتا فلم أسمع. سمعت فقط هدير قطار الليل العائد يمزق الجسد الساقط تحـت العجلات بفعل فاعل لا أجهله. وقفزت إلى التليفون وأبلغت لم يسارع إلى الحضور من أبلغتهم. حضر ناس وحضر الطبيب. اقتادونى بخشـونة وعنـف توسطت الرجال المسلحين، تذكرت إحساس التراجع والهزب. تذكرت إنكارى وعجبى. هرب دمى وأنا وسط الرجال المسلحين. بينما رأيت مئات العجلات الحديدية تدوس الجسد المطروح على المتـوازيين الباردين بفعل فاعل لا يمكن نسيانه..."

(٣)

.. الدقات الثلاث بيد الرئيس تعلن عن فـتح الجلسـة. يعلو الرئيس والعضوين – ميزان بأصـابع الفتـاة النحاسـية

المعصوبة العينين. تعلوه اللافتة ذات الخـط العـريض: (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل). أراقب من وراء القضبان القضاة الموقرين والفتاة العمياء والآية الحاسمة..

أغمض عينى فأسمع طبل القلب فى هدير الحديد يعود. العجلات لا تتوقف.. أفتح عينى على يد الرئيس تشـير إلـى الادعاء فينهض ويتكلم ويسأل الشهود، ثم يذكرني أنني حلفت اليمين. أضطرب ولكن بدون مقاومة. أستسلم رغم أني لسـت الفاعل.. أحني رأسي المفعمة بأمواج يائسة ممزوجة بأمل واهٍ ضعيف..

صوت الادعـاء يفصّـل ثـم يطلـب "الإعـدام"... آه...الإعدام؟ الإعدام عقوبة القاتل. عقوبـة القاتـل الإعـدام. عقوبة الإعدام للقاتل. عقوبة القاتل الإعدام. عقوبـة الإعـدام يصدرها القضاء... إعداااااام. يطن برأسي المنحني صـوت الادعاء.. يطن بقسوة وبغير رحمة..

الادعاء يصمت فأصحو متوقفا عن لعبة فك الجملـة. أرى القاضى يأذن للدفاع فيقف ويتكلم ويسأل الشهود، ثم يطلب البراءة:

- أطلب البراءة لموكلي لأنه ليس القاتل.. يجب البحث عن القاتل...

واصل المحامى دفاعه. فشردت عنه ضاحكاً فى نفسى.. لا أتحمس للمتابعة. أجلس وأدير بصرى لأول مرة فى صفوف الحاضرين. معارف القتيل من الفنانين ومعارفي.. أقاربه وأقاربي. أفحصهم.. الرجال والنساء.. مَن أعرف ومَن أجهل..

أنهض بلدغة عقرب؛ ففى الصف الثانى تجلس أماني شقيقة صديقي القتيل. الأرملة تنظر تجاهى بنظرة جامدة. لكنها ترسل إلىّ معنى واحدا أفهمه. ترتدى السواد. تحول وجهها الجميل عنى دون أن يتراجع المعنى الواحد الذى أفهمه.. هاهي تعذبني. تجلدني. لا تسندني بنظرة تعاطف، فأدركت أنها لن ترحمني..

أعود إلى المحامى وهو يدلل بأدلة لا أفهمها. أذكر بشدة وأفهم "إدانة" الادعاء.. أهمّ أيضا بفك جملة المحامى يطلب البراءة: "أطلب البراءة لموكلى". لكن القلب امتنع. تضخم بالألم، بنظرة المعنى الواحد تعكسه عينا أماني.. أفهمه..

أطرق واعيا وأنا أذكر ما قال صديقى القديم: "يجب أن نصحح أكثر من خطأ". ثم أرفع رأسى لمتابعة وجه أماني

تتوسط الصف الثانى، تبدو متجهمة، ومصرة على ما تفكر فيه؛ فأتساءل: هل تعلن عنه الآن فتتعقد المشكلة، وتستحيل الحلول المقترحة؟! أم أنك يا أماني ستراعين حبنا فتصمتين؟:

"تتوالى على ذهنى أصوات متعارضة. سمعت أمانى تقول: الخلاف مستحكم ولا يمكننى التحدى. قلت: لست قاصرا وأنا فى انتظارك. قالت: يهددنى أخى خالد لو لم أتزوج من يسري الشاذلي الذي اختاره ووافق عليه. قلت: لن أسمح بأن يسلبك أحد ولن أغفر لأخيك ولمن يتزوجك. قالت: لا يمكن أن أسهم فى دمار أخى. غضبت وقلت: وأنا؟ ألم تفكرى فى احتمال دمارى؟. قالت: يمكن أن يظل الحب بلا زواج. قلت: هراء، لن أستسلم. سأزيح من طريقى كل من يعترضنى حتى بعد زواجك. قالت: الحكمة مطلوبة الآن وفى المستقبل. قلت: "الوسط" كله يعرف، واسمى لا يسمح بالهزيمة. قالت متحدية: ستورطك حماقتك، ولن تحصل على شيء.. افترقنا على "خلاف".

"تظاهرنا" كلّ فى طريق.. ولم أنس طيلة عام كامل نظرات الشامتين.. وقد وقع حادث القطار وأنا فى رحلة فنية خارج الحدود.. وحينما نشرت الصحف عن عودتى جاءت أماني.. جاءت أرملة بثياب الحداد ولم يجئ بالطبع شقيقها – صديقى القديم.. قالت: لن أتكلم. ولن أشهد. ولكننى لن أسمح لك.. كانت حاسمة غاضبة، غامضة كارهة. خشيتها.. وافترقنا.. "تظاهرنا" كلّ فى طريق. اندفعت بسيارتى فوق المدينة لا أسمع ولا أرى سوى هدير قطار الليل العائد تمزق عجلاته الجسد الساقط بيد غير مجهولة"..

(٤)

.. الادعاء والدفاع والشهود والحاضرون والقضاة والفتاة العمياء تحت الآية الحاسمة.. أشعر بقلبى ثقيلا فى صدرى.. تشتجر فيه كلمات وصور رديئة. تشتجر وتتقاطع وتتوازى وتتداخل.. آه.. أرغب فى نوم طويل.. هبط النجم.. البراءة والإدانة. هبطت كل النجوم. آه.. أرغب فى العدم..

أنظر من العدم بعيون إلى القاعة. مرهقة. أنظر إلى أميرتى وجميلتى التى أحببت.. أراها وأنا المعدوم تحدجنى بصراحة واتزان بمعنى واحد واحد واحد لا يتغير.. أفهمه. ترتدى أماني حدادا فوق الحداد.. هزت رأسها ونهضت. سحبت عينيها فنهضتُ. مضت إلى الباب بثبات ومازالت الجلسة قائمة منعقدة.. خرجت أماني وغابت.. هجم القطار الليلي. هجم بالخطر. شلت الأقدام وانسربت الحياة.. تهاويت تحت هدير القطار الوحشي تذبح عجلاته وتمزق.. أغيب وأنا أرى أكثر من أى وقت مضى.. أغيب وأنا وحدى الذى يعرف الرجل المجهول..

فبراير ١٩٨٠

انكسارات دائرة فى مساء ردىء..

انكسارات دائرة فى مساء ردىء

(١)

.. ساعة الحائط تواجهنى بدقات خمس لا ترحم.. تحثني لأنهض وأفتح وأخرج وأهبط وأنطلق إلى "مونتابللا" بقمة المقطم، ينتظرنى فى الكازينو الشتوى يطل على الأحياء والأموات معا. تحث ساعتنا المنذرة وتحرّض يا نجاة، ولكنى لا أفعل؛ فالمطر ثقيل غزير وراء زجاج الشرفة مازال يتساقط. وصرير الريح فى ضربات الرعد تتحدى، فتلصقنى

بمقعدى السابح فى غيم أحمق ينساب فى الصالة الواسعة رماديا مقبضا، ترسم ظلاله صورة محمول على الأعناق مشيع بصراخ يعبر به الصاعدون فى الجبل.. وليس صياح بناتى الثلاث فى غرفتهن بنهاية الممر إلا صراخ نسوة الميت يتكئ على أعصابى فيوتر ويزعج ويوشك أن يعجزنى.

هل أذعن للتحدى فأرفع أعلام استسلامى فلا أنهض ولا أخرج ولا أصعد إلى رجلى؟.. صعد فى الرعد والريح والمطر، وجلس يرقب حضورى.. أراه مبلل الثياب منكمشا ينفض عن شعره المتراجع قطرات المطر..

البنات الثلاث.. صغيرات يصحن. تصيح كل بنات المدينة.. تصيح النسوة خلف المحمول إلى المثوى أسفل الجبل يعبرون به إلى القبر المفتوح الذي أعدوه له عقب وفاته، وربما أعدوه قبل الوفاة بيوم أو أيام..

ينفذ الصياح من الباب المغلق رفيعا حادا يلازم فوضى الرعد والبرق والمطر. يتابعن من النافذة. يصحن لعبا أو مشاجرة أو رعبا دون أن يفتح بابهن. لا أسأل.. أحب أن أخلو ولا يشغلني أحد. تكفي السنوات التي مضت من عمري..

لا أعبأ بالصراخ أو الصياح. يجنبنني وهن بالداخل الإثارة والغضب.. يتركننى كلما خلوت. يدركن أننى لا أحبهن عصر كل يوم فلا أسمع الكلام والشكوى والطلب. ينسحبن إلى غرفهن بنهاية الممر، فأفزع متوترة إلى حجرتى. صوان ملابسى؛ لأخلع وأرتدى فى مرآتى أرانى متوردة غير شاحبة. أعود بعد أن أتعطر إلى الصالة الخانية تدفعنى إلى الباب والسلم والطريق دون أن أرى أحدا فأستقل سيارتى إلى الجبل..

مازال الصراخ متصلا مزعجا وقاسيا، يستهدفنى تحديا يثيرنى فيدق القلب دقا أشعر هذا المساء أنه جديد علىّ. هل أذعن وأستسلم؟ هيهات.. لن يحدث. لابد من الصعود للقائه. وعليهن أن ينتظرن بالصراخ أو الصمت، وعلى زوجى جمال حين يعود -لو عاد- أن ينتظر. لست أهتم. لكن الصراخ الرفيع يشتد.. لكننى أسمع صراخ النسوة يثرن الغبار خلف المحمول إلى المثوى ونحن نصعد فى الجبل..

هيهات.. لن أتراجع. أمضى نحو الباب مصممة. لكن ثقلا يصيب قدمىّ فأقف بينما تعرض بعينى ليلة تعارفنا الرائعة:

"فى ليلة رائعة من سبتمبر دعانا ماجد الهواري صديق زوجى الجديد إلى منزله لتناول العشاء. كان الهدف توثيق الصلة بين الأسرتين. كلاهما يعمل فى ميدان واحد. التصدير والاستيراد. كانت رغبة زوجى جمال فى تلبية الدعوة أشد. حدثنى زوجى عنه ونحن فى الطريق إلى المنزل. حدثنى معجبا ومفتونا بالشخصية المقتدرة الصارمة الصادقة. وقال إن المراقبين لنشاطنا يراهنون على أننى سأنجح فى فترة وجيزة. وقال: إن بينى وبين صديقى الجديد سنوات طويلة من العمر والخبرة..

لم أمنع إحساسا نشطا بالإعجاب بالرجل قبل أن أراه. وحينما التقت نظراتنا وهو يستقبلنا مع زوجته اضطربت اضطرابا أخجلنى. أمسكت بذراع واحدة من بناتى وهو يصافحنى ضاغطا يدى. تواصل الاضطراب والخجل بما وجدته فى نظراته وبما أحسسته من يده. لم أشعر طوال الجلسة إلا به. كنت مبهورة فلم أتذوق كل ما قدم

إلىّ من شراب وطعـــام وشـــراب!! .. اندهشـــت وحذرت، تضايقت وسامحت. اغتظت وصـــفحت، غضبت وانجذبت؛ عيناه رغم ملاحقاتى لم تتوقفـــا طويلا علىّ.. كانتا تعبران بى بســـرعة هاربـــة. رضيت وتقدمت..

اندفعت بقوة اللحظة الرائعة أعجزت فـــىّ كل معنـــى رادع: الأمومـــة –رابطـــة الـــزواج– الصداقة الجديدة المتوقعة– نجاح زوجـــى جمـــال المتواصل– شباب زوجى البارز أمام كهولة ماجد صديقه الجديد و..اندفعت –لا مفر– بقوة اللحظـــة الجميلة الرائعة أملت علىّ أمرا حاســـما لا يمكـــن رده بأننى لابد أن أمتلك وبسرعة هـــذا الرجـــل.. عجز كل رادع عن قهر اندفاعى. عجز.. عجز..

عدت إلـــى منزلنـــا وحجرتنـــا وفراشـــنا بأعصاب منتصبة كالشوك.. نالنى زوجى الشـــاب بينما كان الكهل يحتوينى. طلع علىّ النهار والكهل مستمر يحتوينى.. أيقنت خـــلال دوامـــة النهـــار

تأخذنى –أننى أعانى مشكلة ليس فيها من طـرف سواى.."

(٢)

.. الجو خارج المنزل أحمق ردىء. معاكس لا يكـف عن التهديد. يفجر الحسرة والكمد. يذكى الشوق إلـى صـعود الجبل.. يعلوه كازينو مونتابللا الشتوى. جلست نجاة فى قاعته الزجاجية على المنضدة. أراها تنتظرنى بمفردها، تترامى أسفل الكازينو قبور الحى قصد أحـدها مشـيعون أثنـاء صـعودنا بالسيارة فأصابنا الوجوم..

أشهق وأزفر وأشهق وأزفر بغضب وأنا أغوص فـى مقعدى مصغيا لضربات القلب العالية. تنهض زوجتى بهـدوء زائف وتبدد الغيم الزاحف على الصالة بإنارة (النجفـة) ذات الألف مصباح تبهر عينى فـأنزعج. أحـتج دون أن أفصـح. أرغب فى أن نبقى فى الرماد بلا ضوء.

أحب تأمل الظلام مادامت الحرب فى الخـارج مسـتعرة مانعة رادعة.. أحب أن لا يتأملنى أحد. لكنـى لا أفعـل. أحـتج وأرغب. أحب ولا أفعل. أراهم تحت الألف مصباح أنارتها جميعا

زوجتى. يجلسون فى مقاعدهم الستة أمامى وحولى: الذكور والإناث. أنجبتهم لى جميعا زوجتى.. جاءوا وعذبوا. كبلوا وطاردوا فضربت الأقدام فى كل اتجاه.. العمل العمل. وشخصت الأبصار إلىّ تعدنى مقتدرا لا يرد سائلا ولا يخيب رجاء.

ترتفع فى الفضاء تحت الأنوار الباهرة عشرة أيد تمسك بخمسة كتب. يطالعون. يتظاهرون بالانصراف عنى لكننى أفهم: يراقبون يتلصصون يفهمون.. وزوجتى منهمكة فى "التريكو" لكنها ترقب حركتى. تهتم ولا تفصح تعلم ولا تتحدث.. الجميع يتظاهرون عدا "دنيا" الصغيرة، بريئة لا تفهم. تعد واجبها المدرسى. الصف الأول..

اعتدت واعتاد المراقبون. أنّى لهم أن يفهموا فيقدروا؟ لا أظنهم يكفون عن الملاحقة، ينهالون بسياط عيونهم الفضولية. متآمرون تقودهم زوجتى. تستر نواياها بصمت كاذب وعناد غير ظاهر وابتسامة زائفة، لا تريد المواجهة.. فربما يتحطم كل شيء. تراقب على أمل أن تستعيدني دون خسائر..

أتراخى وأغوص فى مقعدى أكثر. أهرب إلى الزمن فى ساعتى وساعة الحائط وساعات الأولاد والعالم. ينحرف

العقرب بشدة وسرعة عن الخامسة. ينهض نصفى ولا أكمل. يفور دمى سخطا.. يفور توقا وولها ومشاعر محددة.. لابد من الرحيل إلى الجبل تعتليه جميلتى؛ وجمتُ ووجمتْ ونحن نمر بالسيارة أقودها على قبور حى الجبل يستقبل أحدها ميتا مشيعا بالغموض والعويل والغبار.. لابد من الرحيل وإلا اختنقت ومت. وليستمروا فى تآمرهم. لا فائدة. فات أوان التراجع ولم يعد للصحوة المنشودة وجود بأمر القلب تسكنه جميلتى منذ ليلة تعارفنا:

"حينما دخلت شابة متألقة برفقة زوجها الشاب صديقى الجديد –غزت قلبى واستقرت. من النظرة الأولى غزت قلبى واستقرت. شعرت بشكة فى القلب وأنا ألمس أو أضغط يدها.. لا أدرى.. وتحرك رادع فورى ما لبث أن تقهقر. خرافة. امتلأت فتهللت وتصاعدت فى لحظة واحدة. لكن عاودنى الرادع الخرافة. هبطت وأنا أتقدم الجميع. وحلت على الخرافة كآبة مزعجة. شعرت بأننى أهمّ بمضغ لحم نيئ غير مشروع..

كانت المرة الأولى التى يزورنى فيها بأسرته صديقى الجديد. كانت المرة الأولى التى أرى فيها زوجته الشابة. هرب الدم. انسرب. جف. اعتصمت أوارى انفعالى النشط بالكلام أفصّل وأطيل مخالفا طبيعتى المعروفة المائلة إلى الصمت والإيجاز. جُبت مواضيع عديدة قبل تناول العشاء وبعده. كنت أراهم ولا أراهم. كان الوجه الشاب المتألق ينغرس فى القلب بخفق توالى طوال السهرة فرحا وأسى، رغبة ورهبة، حذرا وطموحا، أملا ويأسا، نشوة ومرارة. لم أعن بالجمال والتألق بقدر ما عنيت بمعنى واحد وعته نظراتى الأولى أسرنى وهزنى وقربنى.. كان بالوجه الجميل هَمّ عميق دعانى إلى سبره والكشف عنه رغم الصغار حولها وشباب الزوج الناجح..

استمعت إلى صوت قلبى ينصح بالخضوع والإجابة.. انعزلت عقب ذهاب الأسرة فى مكتبى. طلبت أن لا يهددنى أحد بحركة أو نداء. كان جزء

منى قد اجتث. لزمت مكتبى حتى الفجر أفكر فيما اجتث.. وتساءلت: هل بمقدورى أن أسترده؟. غادرت إلى الفراش.. ونمت وصحوت بتصميم جسور لا يخالطه رادع..

حادثت غير كليم الوجه الذى تمكن واستقر. وقلت: إننى أنتظرك منذ الميلاد. وقلت: إن ميلى السريع الحاد إرادة لا يمكن أن ترد. وقلت: إن ميلى حق لى محال التخلى عنه. وقلت: إننى غير مطلع على الغيب حتى أتوخى الحذر فلا أصنع زواجا رسميا، وحياة رسمية، وأسرة جعلت الأقدام تضرب فى كل اتجاه، وتحفزنى بألف عين ترانى مقتدرا لا يخيب رجاء. وقلت وأنا أسقط بنوم أو موت: كيف لى أن أعلم ما يجرى فى الغيب.."

(٣)

.. الخامسة والربع. أقوم وسط الرماد.. أمشى ساعية إلى الباب المغلق. ألاحظ خيوط المطر ماتزال ثقيلة.. ألاحظ صرصرة الريح وانفجارات الرعد.. يتضاعف الهمّ فتخور

قوتى وتهن إرادتى فلا تفتح يدى الممتدة. هل تنجح البنات؟ .. آه.. ألا يكف صخب كل نساء المدينة؟ .. وزوجى الشاب يراقبنى بوجه غير واضح من وراء زجاج المطر. رادع آخر لأبطل المحاولة..

تتراجع يدى وتسقط دون أن تفتح .. آه.. الخور والشلل والصخب و.. أتهاوى من قمة الجبل تحرضنا فننسى ما عدانا. أتدحرج مرتطمة بالصخور الصلدة السوداء.. يسكن جسدى مهشما بين الشواهد المفزعة وسط الظلام أمام مدخل الجبل فأرى القبور مغلقة يغطيها الغموض. لكننى أرى أحدها مفتوحا يلقف جسدا كان حيا تندبه امرأة يواسيها المشيعون.. عبرنا بالمنظر ونحن نصعد فى الجبل. أرى فأذكر الوجوم والقلق والفزع يشملنا جميعا.. أذكر توتر عجلات سيارته تجمعنا صاعدة. أذكر المشهد الغروبى يجب أن ينسى ليمكن الخروج والصعود. فمعه أنسى كل رداءة واقعة ومحتملة..

"كان لقاؤنا الثانى فى كازينو الجبل الشتوى. حضر أربعتنا فى سيارته يقودها لنشهد حفل زفاف ابنة صديق مشترك. كانت تجلس على

يمينه زوجته التى لم تخف قلقها. وكنت أجلس خلف ظهره مباشرة، ويجاورنى زوجى الذى كان يتحدث فيتولى مهمة كسر الصمت الذى شملنا بعد دقائق من تحركنا..

فى مرآة السقف الصغيرة أمامه جعلت أتأمل عينيه. وكان هو موزعا بين المرآة يبتسم لى وبين مراقبة الطريق يتفادى مفاجآته النشطة. وحين اقتربنا مع الغروب من مدخل الطريق الصاعد فى الجبل – شاهدنا قبور الحى قائمة شواهدها الكثيرة العدد.. وشمت أنوفنا رائحة غريبة غير عطرة وغير كريهة فرجع الصمت. وكان يمشى خببا جمع قليل من الرجال يتقدمهم أربعة يحملون. وكانت تتبع الرجال نسوة بملابس سوداء.. كانت ترتفع الولولات وتتعالى كلما انطلق صوت مبحوح ينادى المتوفى. كانت زوجته. كان: "جملى" و"عِزّى" و"بابى" و"عمودى" الذى سقط.. وكان ثمة غبار أثارته الأقدام المتعبة، ولم يكن وحيدا سوى المحمول على الأكتاف الأربعة..

عاد زوحى وتولى مهمة كسر الصمت الذى حل بنا.. وبلغنا قاعة الكازينو الزجاجية الباهرة الأضواء تضج بالموسيقى والغناء والرقص. انصرفت بعينى إليه خائفة عليه فور جلوسنا على المائدة. أخافتنى جنازة الغروب.. ضايقتنى أصوات الصبايا يتضاحكن بدلال وإغواء. كان الضجر. وجاءت نسوة الغروب الرديء وشاركن.. وعلا الصوت المبحوح ينـدب الجمل والعز والباب والعمود الذى سقط. فكان الخطر. وكان الهلع. وكان الخوف. وكان الحرص. فسددت إليه نظراتى غير مبالية وهو يراقبنى طويلا هذه المرة بعينين مجهدتين محمرتين..

بكيت فى نفسى وأطرقت عاودتنى تفاصيل ليلة سبتمبر الرائعة: اللقاء الأول.. الدهشة والانقلاب العظيم.. وقلت فى نفسى إننى مقبلة على أمر ما الليلة. وقلت لا فائدة من الخجل واستدعاء الروادع الخرافية. وقلت من فوق الجبل: فليسمع الأحياء وغيرهم: هذا الرجل لى.. أحبه.. دعوه

لى.. ولم أعبأ باحتجاج الأحياء وغيرهم.. لم أعبأ. ولما رفعت بصرى لم أجده. كان المقعد خاليا: صفعتنى كفوف الأحياء وغيرهم.. فزعت ولم أسأل أحدا. وحضرت المرأة تولول وتنادى رجلها خلف الرجال وسط الغبار تحت الغروب بمدخل الجبل، فقلت: إننى مقبلة على أمر ما هذه الليلة..

قمت ولم يسأل أحد. مضيت إلى الممر أسلمنى إلى باب القاعة.. أسلمنى إلى الساحة الخارجية الضئيلة الأضواء ولم يسأل أحد: كنت مدفوعة بقوة معلومة فلم أهتم. رأيته واقفا وحده فى طرف الساحة يطل على سهل القبور قد سقط عليه الظلام والغموض. هرعت إليه بقوة معلومة. دنوت منه..التفت إلى ماذا يديه. تشابكنا وتلامسنا وتحركنا إلى الجانب الآخر تظهر منه أضواء الأحياء القريبة. جعلنا وراءنا قبور الحى المظلمة الغامضة.. همس لى بكلمة واحدة: "أحبك". فأجبت مستسلمة وأنا أذكر كل شىء بكلمة واحدة: "أحبك"..

عدت.. وعاد دون أن يسأل أحد. لكن العيون الأربعة راحت تفتش وترصد تفاصيل القوة المعلومة.. نهضنا وباركنا وتمنينا ومضينا إلى السيارة، عبرت السيارة بأقصى سرعة بمخرج الجبل فاسترحنا. لم أر القبور ولم أشأ. ولم أكن أحب أن أرى غيره..

جلست فى فراشى بعد أن نالنى زوجى ونام: لا أرى غير وجهه الرائع هددته تفاصيل المنظر الرديء بمدخل الجبل. بُحّ صوتى بالبكاء أشارك امرأة المتوفى وتشاركنى العزاء. بللت الدموع كل الفراش حتى الصباح. وقال فى التليفون فى أذنى متردد الصوت: أنتظرك فى الخامسة فوق الجبل، فجاءت الأرملة تذكرنى فلم أعترض. وأعلنت من القمة بكل الصوت تصميمى.. لم أشعر بالروادع الخرافية. انزوت. حيتنى الأرملة ومضت...".

(٤)

.. دنيا الصغيرة تهب لنهوضى تتعلق بساقى. لا تفهم. ولكنى أقرأ سؤالا عن حركتى فى عينيها الصغيرتين تديرهما بين الزجاج ينقره المطر والوجوه المترقبة ترتسم فيها ملامح العداء.

تصعد عيناها إلىّ.. أنحنى وأرفعها. أقرب وجهها.. أعود إلى قراءة السؤال فى العينين الصغيرتين. أغضب وأحدج زجاج الشرفة والوجوه العدائية.. أكلمها دون كلام والرعد يتواصل: لابد من الخروج يا دنيا لابد. تجلس أماني يا صغيرتى فى ركننا المحبوب مبتلة الثياب والشعر. كيف يمكن أن تتقى مضايقات الرواد؟ لابد من الخروج يا دنيا لابد..

أنزل الصغيرة بعناية. أربت الخدين. تهدأ فتتركنى. أقصد الباب صامتا مدفوعا بما لا يمكن قهره. أشعر بما يجرى فى قلوب المراقبين. أشعر. كآبة رفض. قلق قهر. خيبة أمل. وربما رغبة أكيدة مثارة بضيق عظيم فى أن أذهب ولا أعود..

ها هو الحل السحرى للمعضلة كما يرون. ويكفى أن ترفع المنبوذ أكتاف أربعة تطوعا فى زمن الغروب فيما لو

صمم وأصر. ها هم قد توصلوا إلى الحل السحرى الحاسم: إما البقاء المقهور بسطوة العيون المطاردة وإما الرحيل النهائى المودع باللعنات الحارة..

ولأننى قدير وقادر ومقتدر فسوف يظل الحل السحرى الحاسم مجرد فكرة واهنة لا تقبل التنفيذ.. كيف يمكن التخلى؟ كيف؟ لم يبق من الرباط الرسمى إلا الوصف والفعل والأبناء. أما الحب هذا "الجميل" الذى حدث، لم نعرفه.. كان مجرد كلمة تُقرأ وتُسمع وتُقال وتُشاهَد. وحين تتمكن "الكلمة الجميلة" من القلب بعد عذاب الانتظار يكون من الجرم التخلى. كيف يمكن التخلى؟ كيف؟ وفرق بين أن يخفق القلب لسراب مجهول وأن يخفق لمن يستقبل ويستجيب وينصت ويفعل ويطيع وينقاد..

هاهى "الكلمة الجميلة الساحرة" متمكنة ومحال أن تهددها يد عابثة. عليهم أن يرضوا. لا خيار لهم.. دوامة العمل، ورتابة الحياة، والكلمات الواحدة لا تتغير لا يمكن أن تطوى تحرقا ملحا وشوقا غلابا إلى الكلمة الجميلة الغازية..

.. تحقق ما نشدت.. تحقق، وليس التخلى سوى سقوط من القمة إلى مثوى مفتوح ينتظر الضحية بلا خبب ولا غبار

ولا ندبة.. وحينئذ يستريحون. فلقد نفذت لهم الشق الآخر من الحل السحرى..

هيهات.. هيهات فلم تنضب الكلمة العزيزة نفرتتى من جنازة الغروب المزعجة ونحن نصعد، وجعلتنى أعبر بالسيارة سهما بمخرج الجبل ونحن نرجع فلم أر لحدا ولا شاهدا ولا حفارا ولا أثرا.. لقد كان الوجه الجميل ينطق بالكلمة المدهشة فى مرآتى الصغيرة وفى قلبى اللاهث:

".. كان الوقت غروبا وأنا أقود السيارة فى الطريق المؤدى إلى الجبل لنشهد فوق قمته حفل زفاف ابنة صديق لنا.. كانت زوجتى بجوارى تتستر خلف صمت اعتدته. وكان فى المقعد الخلفى صديقى الجديد تجاوره زوجته.. أماني.. كانت خلفى مباشرة. كان الوجه كاملا فى المرآة لأن القلب بها امتلأ..

قبل أن نصل إلى نقطة الصعود بمدخل الجبل عبرنا بقبور قديمة انبعثت منها رائحة واحدة غريبة.. وكانت بالقرب منها جنازة صغيرة تسرع

تحت الغروب تجاه قبر مفتوح وقف أمامه رجل شمر عن ساعديه. كان عدد الرجال قليلا، وكانت النسوة أكثر عددا. كان الحاملون الأربعة مسرعين فأسرع المشيعون فأثاروا الغبار فاختلط بلون الغروب.. وصاحت النسوة صيحات لم أصدقها فضاعت فى هدير السيارة.. نفرت وتضايقت وزدت من سرعة السيارة تصعد إلى الكازينو، وعدت إلى الجميلة فى مرآتى وقلبى..

خلف المائدة التى جمعتنا فشلت فى قهر نظراتى. أحببت أن أنفرد بها وأتكلم. كان ما يحدث بداخلى شىء لم أجربه من قبل.. وكانت القاعة تصطخب بالموسيقا والرقص والغناء وأصوات الحاضرين وضحكاتهم تفرقع فى القاعة المعبأة بالعرق ومختلف العطور..

ضاق صدرى ونشدت هواء نقيا. وكنت منقبضا بجنازة الغروب تغزونى وبالحفار المشمر ينتظر. ضاق صدرى ونشدت هواء نقيا.. نهضتُ وهى مطرقة. هرعت إلى الساحة الخارجية. لجأت إلى

السور أطل على الحى المجاور تسطع فيه الأنوار بينما القبور فى الأسفل غارقة فى الغموض والظلام احتوى أحدها ميت الغروب والغبار والصياح..

رجعت بخطوات تدنو. رجع بصرى. كانت خطوات جميلتى الشابة.. مددت ذراعى فأسرعت. تلاقينا ولم يتكلم لسانى.. أحسست بارتجافة مراهق وأنا الكهل. فقدت توازنى وتراجع كل شىء وغام: العمل والزوجة والأبناء والنظام عدا أماني مفجرة الكلمة الجميلة الفاتحة الساحرة..

تناهت إلينا أصوات الداخل المتنافرة، وطال صمتنا ولم يتكلم لسانى، وعادت جنازة الغروب والغبار والصياح إلى غزوى فانتصب القبر المفتوح يقف ببابه الحفار المشمر، فقلت هاربا لأماني أبوح بكلمة واحدة: "أحبك". وجدتها تلمح الشواهد المشرعة بالأسفل وتجيب بكلمة واحدة: "أحبك".. آه.. ها هى "الكلمة الجميلة الفاتحة الساحرة" معلنة.. وددت لو سمعوا صوت القلب.. عادت إلى القاعة وعدت..

عقب انتهاء الحفل مضينا إلى السيارة وهبطنا.. زدت من السرعة حينما اقتربنا من المخرج فلم أر شيئا... قضيت بقية الليل عقب فعل لم أرغبه. وقلت فى التليفون صباحا وأنا الكهل: أحبك، أحبك، وأنتظر فى الخامسة بالكازينو، وقلت وأنا الكهل: لم يعد فى الحياة غيرك. وقلت وأنا الكهل: إن الحياة الآن رائعة...

جاء أكبر الأبناء وقال كلاما، وجاءت دنيا وقالت كلاما.. ولكنى كررت وأنا الكهل على سمعها: "أحبك" وأحب كل شىء لأنى أحبك. وقالت فى سمعى سأحضر، وشكت وقالت: أين كنا؟ لِمَ لَمْ نلتق من قبل؟ وهل نصبر ونتكتم؟. وقلت وأنا لا أرى غيرها: أنا أعلن من فوق الجبل أسمع المدينة. وقالت وأنا أفعل.. أفارق زوجى إلى الأبد..."

(٥)

.. آه.. الرداءة مازالت مستمرة حقيقة لا تُنكر. المطر والريح والرعد والبرق حقيقة لا تُنكر. ووجه زوجى خلف زجاج المطر فى صياح بناتى حقيقة لا تنكر. لكن الجبل القائم

يعلوه الكازينو يحتوى الرجل العالى غزا القلب وتوطن وأنسى حقيقة لا تُنكر. وجنازة الغروب بالأصوات المنكسرة تزعج وتنفر حقيقة لا تُنكر. وها هى اليد أخيرا تمتد إلى الباب لا مفر تفتح بسرعة فأخرج وأغلق وأهبط إلى سيارتى ساعية إلى كازينو الجبل تحت زخّات المطر وانفجارات الرعد، ووسط صياح نسوة المتوفى دون أن أهتم: فموعدنا حقيقة لا تُنكر.

(٦)

.. فوضى الخارج متواصلة. والخروج الآن يفجر يفجر الصمت. وتوقعْ أن ينهال الكلام من كل جهة خناجر وسيوفا ورماحا وأسلحة عصرية ترمى بك إلى المثوى.. هيهات.. القدرة.. تتضاعف.. أشعر. والقلب ضخم قوى بفعل الكلمة الفاصلة. وعليهم أن يفهموا ويقدروا فلا يتدخلون ولا يختارون. ها هو الباب أفتحه دون أن أرى الزوجة والأبناء. أضرب درجات السلم بأقدامى واثقا مطمئنا ولا أهتم بالمراقبة الجماعية.. أهدف إلى كازينو الجبل. أركب سيارتى وأهرع إلى الكازينو..

يونيو ١٩٨٠

الفهرس

الفهرس

م	القصة	الصفحة
١	الرسم على الماء	٩
٢	الكـــــلام	٣١
٣	مقاطع من أغنية غير مسموعة	٤٥
٤	النبش فى تقاطعات الرداءة	٧١
٥	انكسارات دائرة فى مساء ردىء	٩٣
-	الفهــرس	١١٩

كتب أخرى للمؤلف

كتب أخرى للمؤلف

أولاً- الإبداع القصصى والروائى:

أ- المجموعات القصصية :

- **الجرح:** مجموعة قصصية، ط (١) لجنة النشر للجامعيين، ١٩٧١، ط (٢)، الأنجلو المصرية-القاهرة، ١٩٩١، ط(٣) دار الإبداع ٢٠٠٨ ، ط(٤) بورصة الكتب ٢٠١٣.

- **الكلام:** مجموعة قصصية، ط(١) دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١، ط(٢) الآداب-القاهرة، ١٩٩١، ط(٣) دار الإبداع ٢٠٠٨ ، ط(٤) بورصة الكتب ، ٢٠١٣ .

- **أمواج الفردوس:** مجموعة قصصية، ط(١) الأنجلو المصرية-القاهرة ٢٠٠٥، ط(٢) دار الإبداع ٢٠٠٩.

- **يـــــوم:** قصص، ط(١) أجيال- الجيزة، ٢٠٠٨.

- **الصياح فى الوديان :** بورصة الكتب، القاهرة ، ٢٠١٣ .

- **لم ينج أحد..:** بورصة الكتب، القاهرة، (تحت الطبع) .

ب- الروايات:

- **سلوى الروح:** ط(١) مكتبة صقر ، طنطا ، ١٩٦٠ ، وط(٢)، دار الإبداع ، القاهرة ، ٢٠٠٧.

- **العائد بالحب:** ط(١) دار الإبداع- القاهرة، ٢٠٠٦، وط(٢) أجيال – الجيزة، ٢٠٠٨.

- **فوق الأحزان:** ط(١) دار الإبداع- القاهرة، ٢٠٠٨، وط(٢) إيزيس ، المنصورة ، ٢٠١٢.

- **صخب الهمس:** (ط١) دار الإبداع – القاهرة، ٢٠٠٩، وط(٢) بورصة الكتب ، القاهرة ، ٢٠١١.

- **حدائق الخريف :** ط(١) بورصة الكتب ، القاهرة ، ٢٠١٢.

- **تحت الأحزان:** ط(١) بورصة الكتب – القاهرة ، ٢٠١٣ .

ثانياً: الكتب :

١. فن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ. ط(١) مكتبة أم القرى، الكويت، ١٩٨٤، ط(٢) الأنجلو المصرية ١٩٨٨.

٢. في البلاغة العربية (علم البيان). ط (١)، الأنجلو المصرية ١٩٨٨.

٣. قيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم. الأنجلو المصرية ١٩٨٩ .

٤. تذوق الفن الشعري في الموروث النقدي والبلاغي. الأنجلو المصرية ١٩٨٩ .

٥. في البلاغة العربية (علم المعاني). ط (١)، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩١.

٦. مقاييس الحكم الموجز في الموروث النقدي. الأنجلو المصرية ١٩٩١، ط ٢ ، بورصة الكتب ودار السياب بلندن ٢٠١١.

٧. الخطاب النفسي في النقد العربي القديم، ط(١) ١٩٩٣ مكتبة الأنجلو المصرية، ط(٢) ٢٠٠١ مكتبة الآداب، ط(٣)، مكتبة الآداب ٢٠٠٦، ط(٤) بورصة الكتب ودار السياب بلندن.

٨. فاعلية التعاقب في الشعر العربي الحديث. الأنجلو المصرية ١٩٩٥.
٩. جدلية الأداء التبادلي في الشعر العربي المعاصر. ط(١) مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٥، ط(٢)، الانجلو المصرية ١٩٩٩.
١٠. الصنعة الفنية في التراث النقدي. ط (١)، مركز الحضارة العربية ١٩٩٩.
١١. طاقات الشعر في التراث النقدي. ط(١) الأنجلو المصرية ١٩٩٩، وط٢ مكتبة الآداب، ٢٠٠٧ .
١٢. إحكام النص الشعري في الموروث النقدي والبلاغي. ط(١) الأنجلو المصرية ٢٠٠٠.
١٣. نظرية الإبداع الشعري عند النواجي. ط (١)، الأنجلو المصرية ٢٠٠٠.
١٤. تجليات الإبداع الأدبي: دراسات في الشعر والقصة والمسرحية. ط(١) مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٢.
١٥. أساليب علم المعاني بين النظرية والتطبيق. ط (١)، مكتبة الآداب ٢٠٠٣ .

١٦. الفنون البيانية والبديعية بين النظرية والتطبيق. ط (١)، مكتبة الآداب ٢٠٠٣.

١٧. النثر الفني في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي. ط (١)، الأنجلو المصرية ٢٠٠٣.

١٨. الشعر العربي في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي. ط (١)، الأنجلو المصرية ٢٠٠٣.

١٩. البنيات الكاشفة عند نجيب محفوظ دراسات في النص القصصي من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٩٦. الأنجلو المصرية ٢٠٠٤ .

٢٠. مرايا التجلي : رؤى نقدية كاشفة.ط(١) الأنجلو المصرية ٢٠٠٥ .

٢١. فيض القلم: مقالات في الثقافة والأدب. ط١، الأنجلو المصرية ٢٠٠٥.

٢٢. نجيب محفوظ حالما بالقمر. ط١، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٦.

٢٣. الأداء التبادلى فى الشعر العربى ، مكتبة الآداب ، ط(١) ، ٢٠١٠ .

٢٤.لعبة الضمائر فى قصص وروايات نجيب محفوظ ، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١١.

٢٥.لعبة الضمائر فى قصص وروايات نجيب محفوظ ، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١١.

٢٦.تقنيات السرد الشعرى فى الشعر العربى الحديث ، مكتبة بورصة الكتب، ٢٠١٣ .

٢٧.الخطاب الرئاسى فى الأدب العربى ، مكتبة بورصة الكتب ، (تحت الطبع) .

٢٨.الرسالة الرئاسية فى الأدب العربى ، مكتبة بورصة الكتب ، (تحت الطبع) .

عن المؤلف:

١- تجليات الفن القصصى عند حسن البندارى : دراسات نقدية لعدد من النقاد ، ط(١) ، دار الإبداع ، القاهرة ، ٢٠٠٩ ، ط(٢) دار الإبداع ، ٢٠١٠ .

٢- آفاق الإبداع الروائى عند حسن البندارى : دراسات نقدية لعدد من النقاد ، ط(١) ، دار الإبداع ، القاهرة ، ٢٠١٠ .

٣- دراسات عن بعض روايات المؤلف فى مجلة الرواية قضايا وآفاق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، العدد العاشر ، ٢٠١٣م .

الناشـــــــر

مكتبة

بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣- ٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ - ٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩

- ٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ - ٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩